
رواية
تسعينيات شارع عشرين
خالد سعيد الداموك

تسعينيات شارع عشرين

رواية

خالد سعيد الداموك

تسعينيات شارع عشرين
خالد سعيد الداموك
عدد الصفحات: ٢٥٧
القياس: ١٤,٨ X ٢١
تصنيف الكتاب: رواية.
الغلاف من تصميم المؤلف.

نشر ذاتي.
تاريخ الإصدار: ٢٠٢٤م.

الإهداء :

إلى صديقي أحمد عبدالرحمن الجريوي الذي يحب الهجمات المرتدة.

تقديم

لم تعد مقولة (القصة مستوحاة من أحداث حقيقية) عبارةً جاذبة للترويج لروايةٍ أو قصةٍ أو فلمٍ سينمائي. بل أصبحت عبارة ساذجة أُستخدمت حتى أُستنفدت وأُسترجعت حتى أُستهلكت مما جعلني أتردد كثيراً لتقديم الرواية بها. ولكن معضلتي مع هذه الرواية عزيزي القارئ؛ أن أحد أبطالها هو من رواها لي وطلب مني التقديم لها بتوضيح يقطع الشك باليقين أنها قصة حقيقية بأحداثها وشخصياتها. وقد اجتمعتُ به كثيراً لتحويل أحداثها إلى عمل روائي رغم الصعوبات التي واجهتنا من بداية العمل فاختلفنا واتفقنا على ما حذفه وأضفته أو أضافه وحذفته. فقد كان مصراً _ أيضاً _ على رواية القصة الحقيقية كما حدثت، وكنتُ أحاول قدر الإمكان تلبية طلبه دون الإخلال بالقالب الروائي الذي تُقدم فيه. ورغم تجاوزنا الكثير من اختلاف وجهات النظر ووصولنا إلى حلول وسطية، إلا أن طلباً آخراً لم أستطع إقناعه بالعدول عنه، وهو إضافة فائدةٍ واحدة في خاتمة كل فصل تمثل وقفةً تأملية وخلاصةً ذات قيمةٍ جوهرية في هذه الحكاية الصبيانية، فلم أستطع التملص من طلبه في النهاية.

المؤلف

(١) حادثة تصادم في منفوحة القديمة

هدأة الظهيرة تحيط بفضاء الحارة والشارع الضيّق. شمس الرياض أوقدت الأجواء فالتجأ الناس إلى منازلهم. لا أحد يعبر المكان أو يجلس على باب بيته. لا أحد يُطل من النافذة أو يتجرأ على فتحها فتتسرب برودة التكييف منها. عُصبة الثلاثة الأشقياء الذين لا يعرفون طعماً للحياة بلا شوارع، هم الوحيدون الذين يتربعون مجالس الحارة ويستمتعون بقيضها ورائحة صهدها.

الأرض الصغيرة الفارغة بين البيوت القديمة التي تحولت إلى موقفٍ لسيارات الساكنين كانت تجمعهم في الظهيرة الملتهبة. إجازة نهاية العام الدراسي وسعّتْ فراغاتهم وأصابت أيامهم بالملل. يتربعون البراحة التي تصطف في أولها السيارات طولياً فتسد مدخلها وتشكل ساتراً بينهم وبين الشارع، ويتداولون فيها أحاديثهم وحكاياتهم ومخططاتهم مختبئين عن الأنظار.

عمران ذو الوجه الدائري والجسد المنتفخ كان يجلس بالقرب من مقدمات السيارات في أول البراحة. يكابد ملله ويسلي نفسه متربصاً بنبلته كل ما يقع بصره عليه؛ حمام الجيران الرابض على النوافذ

وحواف الأسطح، المكيفات التي يزعجه هديرها، القطط المتنقلة بكسل بين براميل النفايات. وإذا ما استبد به الضجر صرخ عالياً لسعد وسلمان الجالسين على طوبتين متجاورتين في آخر البراحة مسندين ظهريهما على الجدار الخلفي لأحد البيوت:

"أجيكم؟"

يجيبانه بكلمةٍ واحدةٍ قاطعة: "لاااا"

لم يكن حديثهما مهماً أو سرياً كما يدعيان ولكن سعد الذي يتزعمهما ضمنياً دون أن يتفوه أحد بذلك، لم يكن في مزاجٍ جيد لتقبل تفاهات عمران وحكاياته الغبية وجرأته على قطع أحاديثهما. يرتاح أكثر للحديث مع سلمان الذي يوافق ما يقوله دائماً ويشيد به. أما عمران بالنسبة لسعد فهو صديق مضطر لصداقته. يصاحبه مشياً إلى المدرسة كل صباح، يسكن في حارته منذ كان صغيراً، يحملان اهتماماتٍ عبثية مشتركة مما أدى بهما إلى هذه الصداقة المعقدة رغم أن سعد لا يستسيغ طبع عمران المتسرع وانتقاله المفاجئ من فكرة لأخرى أو من عملٍ لآخر دون أن يكمل الأول.

مجلس سعد وسلمان كان عامراً بالأحاديث المترامية. يجلسان رافعان ثوبيهما المتسخين بعوالق الأرض حتى ركبتيهما ويتحدثان في أي شيء دون أن يعودا إليه مرةً أخرى عدا الموضوع الوحيد

الذي يصر سلمان على فتحه باستمرار ويحاول سعد إغلاقه دون فائدة؛ إنه الساكن الجديد في حارتهم، الأبكم، أو (الأطرم) كما يحبون تسميته وكما درجت عليه ألسنتهم العامية. نحيف، قصير، أسمر، مثلث الرأس ويبدو كمن قُليَّ بشمس الرياض حتى صار شبيهاً بسمبوسة، شعره أجعد يشوبه الشيب رغم أنه ما زال في السادسة عشرة كما هي أعمارهم أو تقترب منها.

منذ الأيام الأولى لسكنه في الحارة وسعد يناصبه العداء لأنه لا يريد إدخال أحدٍ في صداقتهم قبل التأكد من ميوله واهتماماته والأهم من ذلك فرض سيطرته عليه. كما أن منزل سعد في أول الشارع؛ ومن أمامه يمر الجميع متجهين إلى شارع عشرين حيث تصطخب الحياة بالأسواق والخياطين والتسجيلات الفنية. وعندما يمر الأبكم من أمام منزل سعد، فهو يتبادل معه نظراتٍ يمكن القول إنها حانقة أو متباغضة أو على أقل تقدير غير مريحة، وهذا ما جعل انطباع سعد الأولي سيئاً عن الأبكم.

أما سلمان الذي يقع بيتهم في منتصف الشارع وبالتحديد أمام منزل الأبكم وبجانب البراحة التي يجلسون فيها، فقد عقد مع الأبكم صداقة سريعة منذ أن رآه في أول يوم مع أهله يُنزلون أثاثهم ويدخلون بيتهم الجديد. بادله الحديث يومها وشعر بالارتياح تجاهه رغم أنه لم يكن يفهم شيئاً مما يقوله لأن صوت الأبكم عندما

يتحدث يشبه صوت فقمة. حاوره بإسهاب وفسر برطعاته على هواه وأجابه وفق ما فهمه وليس ما سأل عنه. وحتى لو شرح الأبكم ما يريده أو ما يعنيه لسلمان، فإن هذا الأخير يعيد نفس الإجابة ولكن بطريقةٍ مختلفة. فعلى سبيل المثال يسأله الأبكم عن أقرب بقالة فيفهم سلمان أنه يسأله عن أقرب مسجد ويجيبه: "إنه في نهاية الشارع الموازي في الخلف" فيعيد الأبكم سؤاله محاولاً التوضيح بأنه يسأل عن البقالة ويجيبه سلمان حسب فهمه مجدداً: "نعم.. هناك دورات مياه وتستطيع أن تتوضأ فيها" ثم يسأله باستنكار: "أليس لديكم حمام؟" فيعيد الأبكم برطعاته بتذمر ليجيبه سلمان مرةً ثالثة بغضب: "عجيب أمرك غريب! ألا تفهم؟! قلت لك أنه جامع كبير وتقام فيه صلاة الجمعة!"

هذا ما كان يحدث، يسير الحوار وفق ما يفهمه سلمان ولا أهمية لما يريده أو يعنيه الأبكم. ولكن هذه الحوارات غالباً ما تكون مفيدة لهذا الأخير بطريقةٍ أو بأخرى، فعندما يبرطع _مثلاً_ مستفسراً عن البقالة، فهو يعرف مكان المسجد رغم أنه لم يعرف مكان البقالة.

كما أن مصادقة أبكم بالنسبة لسلمان كانت محاطة بهالة من الغموض الجميل، وهو ما جعله يندفع خلف فضوله لخوض غمار التجربة وتقديم يد العون له فيما ظن أنه بحاجته، ونؤكد هنا، فيما

ظن أنه بحاجته وليس ما يحتاجه الأبكم في الحقيقة. فساعده في حمل الأثاث وترتيبه في منزلهم وأعطاه معلومات دقيقة عن الساكن السابق والجيران القريبين من بيت الأبكم وهذا الأخير يستمع إليه باهتمام.

ولكن هذه الصداقة بين الأبكم وسلمان باتت تصطدم بعقبةٍ كأداء منذ بدايتها، فلسعد سطوته وسلطته على سلمان وعمران وله الكلمة العليا، ونتيجةً لما أسلفنا سابقاً فهو لن يسمح بدخول الأبكم بينهم بسهولة.

"أنا أعرفك.. أنت متكبر.. ولأنه أطرم فأنت تعتقد أنك أفضل منه" أمعن سلمان نظره في سعد وزمَّ شفتيه وهو يقول ذلك. أما سعد فترك للصمت مجالاً حتى يستفيق سلمان مما يطلبه، أو أنه كان يبحث عن عذرٍ حتى لو كان واهياً يغلق به نقاشهما العقيم. أصوات هدير المكيفات المتداخلة من حولهما جعلت النقاش نزقاً لدى سلمان وضجراً لدى سعد.

"لا تفهمني بطريقة خاطئة يا سلمان أرجوك" ثم صمت لبعض الوقت قبل أن يكمل: "بالأمس كنتُ أقف أمام منزلنا ومرَّ من أمامي دون أن يعيرني اهتماماً. لا سلام ولا كلام يا عبدالسلام"

"اللي ما يعرف الصقر يشويه" أجاب سلمان لينفخ كبرياء صديقه كاسياً وجهه البليد براءةً لم يسعه تلبسها: "إنه لا يعرفك ولا

يعرف أهميتك في الحارة. واللي ما يعرفك ما يثمنك" أضاف مثلاً آخر ثم أكمل: "ولكني بعد أن تحدثت إليه عنك، فلا أعتقد أنه سيعود إلى هذا الفعل"

"ومتى تحدثت إليه؟ قلتُ لك هذا حدث بالأمس!"

"اليوم! اليوم فقط أخبرته عنك!" استجمع سلمان كذبته ليوفق بين صديقيه: "أرجوك يا سعد لا تكن مجحفاً بحق الرجل"

"ألا يكفي ورطتنا مع هذا؟" أشار سعد بكلامه بعد صمتٍ لم يطل إلى عمران الذي أصابه الملل من اللعب وحيداً بنبلته فرماها على بعد مترين ثم حفر في التربة وأنزل سرواله حتى ركبتيه ساتراً عورته بثوبه وأقعى على الحفرة وبال فيها ثم دفنها قبل أن يصدر عواءً متقطعاً.

علّق سعد باشمئزاز على ما فعله عمران: "إنها المرة الأولى التي أرى فيها أحداً يريد أن يكون كلباً"

حدّق سلمان في عمران لوهلة ثم عاد بإصرار إلى موضوع الأبكم: "لا.. لا" مؤكداً بنفيه: "هناك فرق يا سعد.. اسمح لي.. أنت تخلط الأمور.. الله خلق وفرق.. وهناك فرق بين الأطرم وهذا الأبله الذي لا فائدة منه"

"وما هو الفرق؟" سأله سعد اعتباطاً وهو يعرف أن إجابات سلمان الملفقة لن تقنعه مهما حاول جعلها منطقية.

"هناك فرق كبير" وسكت سلمان متذرعاً بجملته في الظاهر ولكنه في الباطن كان يبحث عن الفرق.

"قلت لك أخبرني ما هو الفرق يا سلمان؟" سأله محاولاً التضييق عليه قبل أن يجد فكرة تنجده.

قلّب سلمان بصره في الأرض كأنما يبحث عن شيءٍ وقع منه، ثم رفع رأسه إلى الأعلى محاولاً التوثق مما يريد قوله: "الأطرم يمكن أن نجني من ورائه المال"

رمى بها هكذا في لحظاته الأخيرة فلم يعرها سعد اهتماماً رغم أهميتها. ويجب علينا التوضيح هنا كي لا يفوتكم من الأمر شيء، فنقول إن الثلاثة _بإضافة عمران إليهما_ يسعون حثيثاً ودائماً للبحث عن المال حتى لو كانت الطريقة التي يبحثون بها محرمة أو لا أخلاقية أو يجرمها القانون. وهذا البحث يدفعهم في مناسباتٍ كثيرة إلى سرقة الأثاث القديم من منازلهم وحمله على سيارة والد سعد البيك آب وبيعه في حراج ابن قاسم بأي ثمن. فتنشب على إثر ذلك المشاجرات مع آبائهم عندما يبيعون أشياء ذات قيمة أو لم يستغنوا أهاليهم عنها بعد. وهذا حدث كثيراً ولم يكن يومهم عنها ببعيد عندما تسببوا بفضيحةٍ مدوية في الحارة وحرجٍ كبير لآبائهم. فقبل أسبوعين من اليوم، سرق عمران أنبوبة الغاز من بيتهم وذهب بها إلى صديقيه مدعياً أن أهله لم يعودوا بحاجةٍ إليها

فباعوها في الحراج وذهبوا للتسكع بثمنها في شارعيّ التخصصي والثلاثين وتناولوا عشاءهم هناك وبقي الأمر طي الكتمان حتى أراد الله أن يكشفهم. وظهر أول خيط الحقيقة عندما أراد والد عمران تغيير أنبوبة الغاز الفارغة في منزلهم فبحث عنها ولم يجدها. بحث في فناء البيت وفي السطح وفي المستودع وفي الحجرات ولكنه لم يجد لها أثراً. وفي أثناء هذا، كان عمران يبحث مع والده مدعياً البلاهة حتى استطاع إيهامه بتعليقاته وتلميحاته أنهم تعرضوا للسرقة التي كانت متفشيةً في ذلك الوقت. فقد كان اللصوص وهم غالباً من مدمني المخدرات، يسرقون أنابيب الغاز التي لا تكلّفهم سوى دخول الأفنية دون اقتحام البيوت وبيعها في الحراج القريب من منفوحة فيحصلون على مال سهل وسريع ليقبضوا ثمن نشوتهم اليومية.

صدّقَ أبو عمران ما أوهمه به ابنه واحتمل الأمر في نفسه واشترى غيرها ثم أخبر جيرانه في المسجد بما حدث معه. فعل ذلك لينبههم وليأخذوا حيطتهم من لصوص الأنابيب فشاع الخبر في الحارة حتى وصل والد سعد الذي قام بدوره بإخبار زوجته وابنه مثيب في منتصف حديثٍ عائلي روتيني. حكى لهم القصة ولم يبالغ فيها ولم يستهن بالأمر. إلا أن مثيب كان يعرف شيئاً، وهذا الشيء كان نهاية خيط الكتمان، فقال لوالده أنه شاهد سعد وسلمان

وعمران قبل أيام يحملون أنبوبة غاز من بيت الأخير ويرحلون بها ولم يعودوا حتى وقتٍ متأخرٍ من الليل. عندها وقعت الفضيحة في الحارة وتسامع بها الجميع وتعرض عمران للضرب مرتين، من والده في الأولى، ومن سعد وسلمان في الثانية لأنه كذب عليهم وادعى أن أهله لم يعودوا بحاجةٍ إلى أنبوبة الغاز. سعد يومها طرده أبوه من البيت وبات ليلته في حوض سيارتهم البيك آب أمام منزلهم. وعند الفجر أدخله والده وهو متجه إلى المسجد دون أن يكف عن تأنيبه وتقريعه متى ما أتيحت له الفرصة.

هذا ولم يقتصر بحثهم عن المال في أثاث منازلهم، بل إنهم في وقتٍ سابق جمعوا تبرعاتٍ للمجاهدين الأفغان ووقفوا على أبواب المساجد واستنهضوا همم المتحمسين للجهاد ولكن أمرهم سرعان ما كُشف بعد أن أمسك بهم الإمام خارج المسجد وقال للثلاثة أن الحرب في أفغانستان انتهت منذ خمسة أعوام.

قال سعد لسلمان وهو ينظر إليه: "آهاا.. وما الذي يستطيع الأطرم فعله ليجلب لنا المال؟"

سحل سلمان جلد مؤخرته على الطوبة التي يجلس عليها مستديراً بحماس ليستقبل سعد وهو يجمع أطراف ثوبه بكل رغبات الإقناع التي يريدها وراح ينبش فضول صديقه بكلماتٍ يُدوّر بها

فمه ويفتح لها عينيه ليدهشه: "فلوس.. فلوس يا سعد.. مال كثير.. لن نتعب في الحصول عليه كما سنتعب في عده"

سعد بنفاد صبر: "أعرف.. قلت ذلك.. ولكنك لم تقل كيف!"

وبعد شعور سلمان أنه تمكن من إثارة فضول صديقه: "سنأخذه إلى أحد الجوامع الكبيرة ونجعله يجلس على بابه قبل نهاية الصلاة وسنعود لأخذه بعدها"

لم يفهم سعد ما يعنيه سلمان فلاح الاستنكار على وجهه وهذا الأخير يكمل: "طبعاً لن ننزله عند الجوامع القريبة من حارتنا. سنذهب به إلى الجوامع البعيدة في الشميسي وخنشليلة والعزيزية"

قال سعد بذهول: "ماذا تعني؟"

"لا تكن غبياً؟! سنجعله يستجدي المصلين ثم نتقاسم المال بيننا"

جحظت عينا سعد وهو ينظر إلى سلمان الذي كان يُمثل العدالة بوجهه ويكمل: "ولكني أريد أن أخبرك من الآن، لا بد من اقتسام المال معه بالتساوي، سيكون التعب تعبه ولا يجب أن نأخذ المال كله"

صرخ سعد عندها في وجه صديقه: "هل أنت مجنون؟!"

سلمان بفزع: "لماذا؟!"

"يا معتوه.. ستمسك بنا مكافحة التسول!"

"لا.. لن يحدث ذلك.. سنراقبه من بعيد وإذا قبضوا عليه سيكون بإمكاننا الهرب ويا دار ما دخلك شر"

رد سلمان جاء سريعاً ويدل على حماقته، أما سعد فظلَّ يتوسل صبره وهو يقول بلهجةٍ مُحبطَة: "سيخبرهم يا غبي أننا من اقترح عليه ذلك، وأننا من أنزله على باب الجامع"

"وكيف سيخبرهم وهو أطرم؟!" كان سلمان يضع طرف سبابته على جانب رأسه ما إن أنهى جملته مشيراً إلى عقله العبقري. أما سعد فأدار رأسه يميناً ويساراً وهو لا يكاد يتمالك نفسه ويقول بتذمر: "بلغة الإشارة يا أذكى مخلوقات الله"

لزم سلمان الصمت دون أن يعرف ما يعنيه سعد، لغة الإشارة جديدة على معلوماته الضحلة. يعرف أنه سمعَ بها ولكنه لا يعرف أين أو متى أو ما هي أو في ماذا تستخدم. حاول ربطها في عقله بإشارة المرور، إشارة السيارة، سلاح الإشارة الذي يعمل فيه أحد أقاربه، بكل معجمه الاصطلاحي الضئيل ولكنه لم ينجح فبقي مذبذباً بأفكاره. وعندما طالع سعد وجه صديقه الطافح بالبلاهة أكمل ليوضح له: "لغة الإشارة، لغة خاصة بالصم والبكم يتواصلون بها فيما بينهم.. هل فهمت الآن؟"

بالتأكيد لم يفهم سلمان، بل تمادى بغروره مع سماعه لوجود لغةٍ خاصةٍ بالصم والبكم حتى ابتسم بسخرية من ذكاء سعد متطرفاً باعتداده بنفسه.

"يا سعد.. يا سعد" ثم صمت لثواني ينظر إلى الأرض بين قدميه مستمتعاً بذكائه: "وماذا في ذلك يا سعد؟ دعه يخبر أطرم مثله، ما الذي سيحدث عندها؟"

أوشك سعد على فقدان صبره وعاد إلى صراخه المكتوم: "يا أخي هذه اللغة يعرفها الأطرم وغير الأطرم، كما أنه يا صديقي الأبله يستطيع كتابة أسماءنا على ورقة، هل فهمت الآن يا حمار؟"

خذلته الكلمة الأخيرة، إنها لقبه الذي يطارده في المنزل والحارة والمدرسة حتى أن حيدر عامل البقالة يناديه بها حتى راجت عنه واشتهر بها وغلبت على اسمه. الحمار؛ بأل التعريف كي لا يُشار بها إلى غيره. قبل ثوانٍ قليلة كان يعتقد أنه نابغة وعبقري وذكاءه لو وزع على البشرية جمعاء لوسعهم وجعل منهم عباقرة، ولكن سعد عندما نعته بهذه الكلمة، تهاوت أمامه كل ادعاءاته الكاذبة واعتداده بنفسه ونبوغه الألمعي.

جمع ثوبه عندها على ساقيه ولم ينطق ببنت شفة، أدار بصره في أفقه صامتاً وهو يطالع عمران أو السيارات المتوقفة ويبحث عن موضوعٍ آخر يبعد عنه خذلانه حتى وجده.

"علي كلاوي أقام فريقاً لحارتهم" قالها سلمان بعد فترة.

"من أخبرك بهذا؟"

"ذهبتُ بالأمس إلى هناك" ثم بعد صمت: "خططوا الساحة المسفلتة أمام ثانوية البنات بدهان أبيض وأحضروا من الصناعية أبواباً حديديةً واشتروا شبكاً"

"كل هذا؟"

"وأكثر.. اشتروا لهم زيّاً موحداً للتدريب وزيّاً للمباريات وكرات (أديداس)"

علي كلاوي عدو سعد الأول، فمنذ أن كانا في الابتدائية وهما يتباغضان ويتقاتلان بشكلٍ دوري وكبرت بينهما هذه العلاقة العدائية على مر السنين. لم يكن كلاوي يجيد كرة القدم، وأكبر مهاراته فيها هي الحراسة مستخدماً جسده السمين في ملء فراغ المرمى رغم أنه لا يفلح كثيراً في ذلك. ولم يتبادر إلى ذهن سعد عندما سمعَ ما قاله سلمان سوى شكل علي كلاوي الغبي وهو يرتدي ملابس رياضية ضيقة تنحسر عن سرته ويقف بين

الخشبات الثلاث فارداً ذراعيه أمامه بخوف محاولاً التصدي لهجمةٍ مباغتة.

سعد لم يستطع منع تفكيره أيضاً من تفسير ما قام به كلاوي كمحاولةٍ لاستفزازه وهو أشهر لاعبي كرة القدم في منفوحة. فطلبات الالتحاق بفرق الحواري كانت تنهال عليه مع حلول أي دورة أو مباراة مهمة. حلمه الدائم والذي يقف والده حائلاً دون تحقيقه هو الالتحاق بنادي الهلال الذي عرض عليه ذلك فرفض والده كل محاولات مندوبي النادي وإغراءاتهم مرجئاً الأمر حتى ينتهي سعد من الثانوية.

"أهالي حارتهم شاركوا فيما يقوم به"

"معقول؟!" ما زال سعد متعجباً.

"الكثير منهم شاركوا معه في التكاليف. دفعوا له مالاً على حسب قدراتهم. وقيل أيضاً أن هناك من استعد بإيصال الكهرباء من بيته إلى الملعب إذا فضلوا التدرب في الليل أو عند دخول شهر رمضان"

"سيظلون أغبياء وبلا مهارات مهما حاولوا" ثم بسخرية: "لن يعرفوا كرة القدم الحقيقية كما أعرفها" قالها سعد.

أضاف سلمان: "يقال أن كلاوي انخرط في تدريبات فريق الأحمدي لشهرٍ كامل قبل أن يبدأ في تنظيم فريقه. تعلّمَ منهم تمارين الإحماء والسويدي ليطبقها على فريق حارته"

خلدا للصمت بعد ذلك، سعد يتقلب في أفكاره عن كلاوي وما يفعله في حارتهم، وسلمان يحاول تناسي خيبته بما نعته به صديقه.

عمران في تلك الأثناء بلغ به الملل ذروته واستنفد ما لديه من أفكار لتزجية وقته، لم يعد يحتمل الانتظار أكثر من ذلك ولم يترك وسيلة يتسلى بها في وحدته. يتمشى على بعد أمتارٍ أمامهما وهو يحدث نفسه أو يُحدث شخصاً خيالياً وربما يقفز عليه ليتقاتل معه. يعقد يديه خلف ظهره ويتحدث منحنياً إلى الأمام وكأنه يستجوب أحداً. يدور على محوره ليباغت أفكاره وشخصياته المتخيلة. وكعادته بالقفز من فكرةٍ إلى أخرى، توقف عما يفعله عندما وقعت عينه على سيارةٍ مفتوحة النوافذ في مقدمة البراحة فتوجه إليها بابتسامةٍ تلوح على وجهه المثقل بخدين متفجرين جعلا من رأسه شبيهاً بيقطينة.

كانت مرسيدس من صنع (١٩٧٧م) يملكها المهندس رأفت المصري. اقترب منها حتى استطاع مد يده إلى الداخل وفتح بابها وقفز فيها بسرعة كأنما يسابق أحداً. أول ما فعل؛ بحث في

صناديق تخزينها الداخلية ولكنه لم يجد شيئاً يثير اهتمامه. وجد مفاتيح صدئة، مفكات، براغي، وبعض الشرائط اللاصقة التي تُنبئ عن عمل المهندس. حاول بعدها إدارة محركها بأسياخ وقضبان معدنية رقيقة التقطها من الأرض، ثم حاول تشغيل الراديو ولكنه لم يفلح. كان يضغط أي زرٍ تصله أصابعه والنشوة تتسرب عبر أوردته المراهقة. أمسك أحد المقابض المهترئة وسحبه ففُتح الغطاء الخلفي وخرج متجهاً إليه وعبث بمحتوياته. ثم عاد إلى داخل السيارة وسحب مقبضاً آخر ففُتح الغطاء الأمامي واتجه بسرعة نحوه وراح ينظر إلى الماكينة ويقلب أسلاكها قبل أن يرفع صوته إلى صديقيه مقلداً سماسرة السيارات: "مفحوص ومجدد.. كم نقول يا ولد؟"

صاح سعد: "يا عمران الكلب.. أقفل غطاء السيارة قبل أن يراك رأفت"

لم يزد عمران على رفعه لإصبعه عالياً بإشارةٍ بذيئة تدل على لامبالاته. أغلق بعدها غطائي السيارة الأمامي والخلفي وعاد للجلوس خلف المقود. كان يعبث بما يجده أمامه بلا تخطيط ويمد يده المتسخة بالتراب والبول ويجرب أي شيء بلا تفكير. غيّر ناقل الحركة وأفلت المكابح اليدوية وأدار مقود السيارة ثم ذهب إلى مقدمتها دافعاً إياها إلى الخلف بكل قوته حتى بدأت إطاراتها

بالتدحرج نحو الشارع وخرجت من موقفها فاستحوذ على اهتمام سعد وسلمان فقال هذا الأخير: "يا عمران.. أترك السيارة.. لا تورطنا معك فيما تفعله"

كانت السيارة متوقفةً في منتصف الشارع وعمران يقف بجانب بابها المفتوح ويعيد توجيه مقودها إلى الأمام. ثم بعد ذلك، قام بدفعها باذلاً قصارى جهده، وأنينه يصل صديقيه الجالسين في نهاية البراحة حتى بدأت بالانحدار فقفز بداخلها.

تملكته السعادة والسيارة تنحدر بتؤدة وهو يوجهها جالساً خلف المقود. شعر بتفرده وإنجازه وأنه استطاع لفت نظر صديقيه ظاناً أنه سيدفعهما للندم لأنهما طرداه من مجلسهما المغلق.

الشارع الضيق كان مرتفعاً بجانب البراحة وهذا ما ساعد في تهادي السيارة نحو نهايته وزاد من متعة عمران. يجلس خلف المقود بثقةٍ لا متناهية وهي تنحدر عبر الشارع وسعادته تتفاقم بداخله. ابتسامته تكشف عن إعجابه بنفسه ورعونة أفعاله ولا مبالاته بعواقبها. يطالع جانبي الشارع ويلامس الهواء بيده اللعوبة عبر النافذة ولا يشعر بقلقٍ مما يفعله.

كانت السيارة تنحرف قليلاً إلى يسار الشارع في انحدارها مما دفعه إلى تعديل مسارها يميناً ولكن المفاجأة حدثت عندما سمعَ صوت قفل المقود فلم يعد يستطيع تحريكه. توقفت سعادته عندها

وهو يحاول سريعاً تحريكه فلم يتحرك والسيارة ما زالت في انحدارها. الخوف لم يدخل قلبه حتى ضغط على دواسة الفرامل فإذا بها متحجرة ولا تستجيب له. عاجل سريعاً بعدها بسحب الكابح اليدوي بلا تردد ولكنه كان مقطوعاً فأصابه الهلع. ازدحمت الأفكار في عقله مع خوفه المتنامي وهو يحاول مجدداً تحريك المقود أو استخدام المكابح اليدوية أو العادية دون أن يستجيب له أحد منها. السيارة تسارعت في انحدارها فخطرت على باله فكرة أخرى، فتح الباب ومد ساقه خارجاً ليوقف السيارة ولكن قدمه كادت تسحل على الاسفلت فأعاد جسده إلى الداخل وأغلق الباب وهو يتألم.

لم يعد هناك ما يستطيع فعله، تملكه الخوف وهو يفكر بسرعة دون أن يجد شيئاً يسعفه. يردد مع نفسه: "يا ربي يا حبيبي.. يا ربي يا حبيبي" وينظر يميناً ويساراً ويضغط على الكوابح مرة وثانية وثالثة دون أن تتعاطف معه. سعد وسلمان شعرا بالمصيبة القادمة عندما غابت السيارة عن نظرهما فخرجا مهرولين من البراحة ليطاردا المشهد ببصرهما. توقفا في منتصف الشارع يتابعان خلفية السيارة وهي تنحدر بتسارع نحو نهايته حتى دوى صوت اصطدام قوي توقفت على إثره السيارة وشاهدا رأس عمران يقفز بداخلها إلى الأعلى ويرتطم بالسقف.

فتحا فميهما على وسعيهما، تجمدا في مكانهما وفرائصهما ترتعد. كانا ينظران إليه في آخر الشارع بالقرب من منزله وهو يترجل من السيارة مترنحاً ويتجه إلى مقدمتها ويطالع السيارة التي اصطدم بها فإذا بها سيارة والده. انتصبت قامته وهما ينظران إليه. أمسك رأسه مستشعراً مصيبته وعرف نهاية عبثه. أدار جسده وطالعهما لبرهة، ثم انطلق راكضاً نحوهما باكياً بصراخٍ يشبه خوار بقرة.

هما أيضاً أصابهما الرعب، ركضا أمامه إلى أقرب بيت وهو بيت سلمان وتدافع الثلاثة على الباب حتى دخلوه وأغلقوه تاركين الشارع خالياً خلفهم والسيارات على وضعها المهشم.

إنها هدأة الظهيرة كما أسلفنا، وصوت الارتطام دوّى بين جدران البيوت ووصل مسامع ساكنيها وراحوا ينزلون إلى الشارع واحداً تلو الآخر. الأبكم كان أول الواصلين إلى موقع الحادث ثم خرج والد عمران ثم نزل أهل الحارة بتتابع إلى أن جاء المهندس رأفت آخراً وهو يستكمل ارتداء بجامته مردداً: "يا خبر أبيض.. يا خبر أبيض"

اجتمع الناس حول السيارتين وهم ينظرون بتعجب إلى حادث بلا سائق خصوصاً أن المهندس رأفت بالكاد خرج من منزله

أمامهم جميعاً. ولما كان الأبكم أول الواصلين فقد كانت أسئلة الحاضرين تتجه إليه.

أبو عمران أول من سأله وهو يتميز غضباً: "هل أنت أول من وصل عند الحادث؟"

هزَّ الأبكم رأسه موافقاً بالإيجاب.

أبو عمران: "أرأيت الذي كان يقود سيارة المهندس؟"

أجابه الأبكم ماداً يديه أمامه أنه وجدها على هذه الحالة.

أبو عمران: "أي أنك لم ترَ الحادث في وقته؟"

هزَّ الأبكم رأسه بالنفي.

أبو عمران بعصبية: "وهل ستنحدر سيارة رأفت لآخر الشارع حتى تصطدم بسيارتي لوحدها؟!"

رفع الأبكم كتفيه نحو أذنيه مجيباً أنه لا يدري.

وبعد إحساس أبي عمران أن حواره معه بلا فائدة: "والله إني أعرف أنك نحس على هذه الحارة منذ أن سكنتَ فيها. لو أن الله يحبك لوهبك لساناً تتحدث به مع الناس"

رفع الأبكم حاجبيه مستنكراً كلام أبي عمران.

كان الحوار يتعالى والأجساد تتجمع حول الحادث وسلمان وسعد يضربان عمران، بطحاه أرضاً وجرجراه على طول فناء المنزل وهو لا يكف عن البكاء باستسلام. ثم سحبا طاولة قديمة

مرمية في آخر الفناء ووضاعاها بجانب السور وصعدا عليها ليتمكنا من متابعة ما يحدث في الشارع. أطلا برأسيهما المتجاورين من على الحائط بحذر ليطالعا الموقف ولكن الحادث كان بعيداً وأصوات المتجمهرين لم تكن واضحة.

سيارة والد عمران انبعج بابها الأمامي حتى وصل مقعد السائق، من يشاهد الحادث لن يصدّقَ أن سيارة المهندس أحدثت كل هذه الأضرار بانحدارها فقط. الباب الخلفي والجسر بين البابين تضررا هما أيضاً ولكن الإصابة كانت متركزةً بشكلٍ أكبر على الباب الأمامي. أما المرسيدس فلم تكن أضرارها كبيرة بسبب صدامها البعيد عن هيكلها والحديد الصلب الذي تُصنع منه السيارات القديمة.

"لعنك الله يا عمران على ما فعلته بالسيارات"

"أي والله.. الله لا يوفقك يا الكلب"

قال الجملة الأولى سعد وأعادها وأمّن عليها سلمان على إثر المصيبة التي لم يتوقعانها. عمران كان يُجلس مؤخرته على البلاط ويتكئ بظهره على جدار المنزل خلفهما وينشج بمرارة راحت تهدأ تدريجياً دون أن يتحدث أو ينبس ببنت شفة.

"الحمد لله أننا هربنا قبل أن يرانا أحد في الشارع"

"أي والله.. الحمد لله يا رب"

قالها سعد وأمّن عليها سلمان مجدداً، هذا ما يفعله سلمان دائماً عندما يعجبه رأي سعد رغم أنه لا يستطيع الخروج عنه. ولكن بالنسبة لهذا الرأي تحديداً؛ فسعد محق فيه بلا جدال، بل يجب عليهم التبتل إلى الله شكراً وحمداً أن لم يرهم أحد، فأي شخص سيقول إنه رأى الثلاثة في الشارع حتى وإن لم تكن شهادته معتد بها، فسيكون ذلك كافياً لتوجيه أصابع الاتهام إليهم بلا تردد.

تكاثر الناس حول الحادث حتى سُدَّ الشارع. جاءت سيارة وأرادت العبور ولكن سائقها سرعان ما تراجع إلى الخلف بعد أن رفع أبو عمران صوته وذراعه ناهراً إياه: "ألا ترى أن هناك حادث يا بهيمة؟!"

غضبه المتأجج جعل التفاهم معه صعباً وكلما أراد صرف نظره إلى مكانٍ معين لم يجد سوى الأبكم فيعود للتحقيق معه. هناك من اقترح عليهم الاتصال بالمرور وهم سيتكفلون بالقبض على المتسبب، ولكن آخرين وعلى رأسهم أبي عمران رفضوا ذلك، قالوا إن المرور سيُحمّلُ المهندس المسكين تكاليف الإصلاح والجميع يعرف أنه لا دخل له فيه.

من على الحائط سمعا شيئاً مما يحدث في الشارع فقال سعد: "سيبلغون المرور"

تحركت أحشاء سلمان فقال معلقاً: "سيتهمون الأبكم"

سعد: "أين والده؟"

"مسكين" قال سلمان: "يتيم، يتفقون عليه لأنه بلا أب. كما أن أهله فقراء، من أين سيدفعون ثمن تصليح السيارات؟!"

"سلمان.. أريد مشاهدة ما يحدث.. أنزل قليلاً لأصعد مكانك" جاء نداء عمران ممزوجاً بتنهدات بكائه الأخيرة وهو يمسح بكمه دموعه المختلطة بمخاطه. بدأ فضوله يدفعه للتأكد مما فعله ولكن الطاولة التي يقف عليها سعد وسلمان لم تكن تتسع للثلاثة فطلب من سلمان النزول ليصعد مكانه.

جاء رد سلمان غاضباً: "ابقَ مكانك وأغلق فمك أيها المنحوس"

عمران: "لن آخذ الكثير من الوقت، سأنظر وأنزل بسرعة، أريد الاطمئنان فقط"

نظر إليه سلمان باحتقار: "ألم أقل لك ألا تورطنا معك؟! ماذا استفدت الآن بعد تهشيم السيارات؟"

عمران: "إنها سيارة والدي! ما دخلك أنت؟!"

سلمان: "وسيارة المهندس؟! أم أن المهندس أمك؟"

تحرك سلمان بانفعاله، لم يكن يهمه جارهم رأفت بالتأكيد، كما أنه لم يتحوّل إلى إنسان يحترم الجيرة هكذا ببساطة، ولكنه لا يريد النزول عن مكانه الذي يتابع منه ما يحدث في الحارة، ودون أن

يعير توسلات عمران اهتماماً، بدأ مع سعد حواراً جديداً: "كم تتوقع تكلفة إصلاح السيارات؟"

سعد: "سيارة والد عمران.." ثم بعد أن حسبها بعقله: "قد تكلّفُ خمسة آلاف، لكن خردة رأفت لا تحتاج شيء"

سلمان: "خمسة آلاف فقط؟! أتحداك إذا لم تصل إلى العشرة!"

أهل الحارة كانوا يتناوبون الأبكم بالأسئلة، منظره بينهم وهو يرتدي ملابسه الداخلية وطاقيته التي لا تكاد تستقر على رأسه المثلث والتفاتاته المتكررة لمن يلقون الأسئلة عليه بالتناوب أثار سخرية سعد فأشار إليه: "أنظر إلى صديقك.. الناس المجتمعون حوله لا يستطيعون التفاهم معه، هل تريد أن تورطنا بهذه الصداقة يا سلمان؟"

سلمان: "صدقني يا سعد أنه شخص جيد، وإذا لم ينفعك فلن يضرك. أطرم لا يتكلم ويزعجك بثرثرته، ولا يورطك في مشاكلٍ أنت في غنى عنها" ونظر إلى عمران متأملاً كأنما يوجه كلامه إليه. وقبل أن يعيد سلمان بصره إلى الشارع صرخ سعد بصوت مكتوم: "لا.. لا.. لا"

أدار سلمان رأسه نحو موقع الحادث فلم يتمالك نفسه هو الآخر: "أف.. أف.. أف"

تنبه عمران لما يقولانه وأدرك أن هناك تطوراً خطيراً يحدث في الشارع: "ماذا يحدث؟" سألهما بعينين متسعتين فأجابه سلمان بصوتٍ صارخ دون أن يبعد بصره عن الشارع: "أبوك يا عمران.. أبوك"

وقف عمران عندها على قدميه ورفع صوته: "ما به؟"

سلمان: "صفع الأبكم"

عمران مرتاعاً: "لماذا؟!"

سعد: "أف.. أف"

تبلبل عمران: "ما الذي يحدث يا سلمان؟"

سلمان: "أبوك أمسك بخناق الأطرم والناس تحاول فكه منه"

عمران: "سلمان.. أرجوك.. أنزل لأرى ما يحدث"

سلمان: "يا الله.. يا الله.. الأطرم هرب وأبوك يلحقه"

عمران: "ماذا يريد منه؟"

سعد يحدث نفسه بصوتٍ مسموع: "أين سيذهب الأطرم؟"

سلمان: "الحارة كلها تطارده"

عمران: "يا شباب، أريد رؤية ما يحدث"

لم يكد يتم عمران جملته حتى قفز سعد من على الطاولة وسحب سلمان من الأعلى بقوة حتى كاد يوقعه.

نظر سلمان بعد استعادة توازنه إلى سعد متعجباً: "ما بك أيها المعتوه؟ كدت أن توقعني!"

سعد: "ألم ترَ الأطرم؟"

سلمان: "بلى، وماذا في ذلك؟"

سعد: "الغبي كان يتجه إلينا!"

عمران: "يتجه إلينا؟! يا ويلي.. يا ويلي"

سلمان: "لا.. هذا غير صحيح.. ما الذي سيأتي به إلينا؟"

سعد: "لقد رأيته ينظر نحونا، أنا متأكد أنه متجه إلينا"

سلمان: "إنه متجه إلى بيتهم"

عمران: "ربما رآكما على الجدار!"

سلمان: "مستحيل، المسافة بعيدة"

سعد: "أنا متأكد، لقد كان ينظر إلينا وهو يركض"

سلمان: "أنت تتوهم، لن يرانا من هذه المسافة حتى لو كان زرقاء اليمامة"

عمران: "إذا كان متجه إلينا فبالتأكيد أنه رآكما"

سعد: "أنا متأكد أنه كان ينظر إلينا"

سلمان محاولاً تهدئة الموقف: "لا تهتموا حتى لو كان متجه إلينا"

سعد: "اسمع الحمار ماذا يقول! كيف لا نهتم؟!"

سلمان: "ربما يكون هناك سبب آخر لمجيئه!"

سعد: "ليس هناك سبب آخر لمجيئه!"

سلمان بإصرار: "بل هناك أسباب كثيرة"

وضع سعد يده على خاصرته وسأل بسخرية: "أعطني سبباً واحداً!"

فكر سلمان قليلاً قبل أن يقول: "من الممكن أنه آتٍ إلينا ليطلب طماط وبصل"

اشتعل غيض سعد من إجابة سلمان البلهاء دون أن يتوقف هذا الأخير عن تبرير ما يقوله بثقة عمياء: "بالأمس جاء يطلب منا في مثل هذا الوقت طماط وبصل للغداء، إنهم مساكين وبحاجة للمساعدة"

سعد: "أنا المسكين الذي وقعت بين يديك ويدي هذا الكلب البوليسي يا رئيس جمعية منفوحة الخيرية" ثم أكمل: "وهل تعتقد أنه وقت مناسب للبحث عن الطماط والبصل والحارة كلها تطارده؟!"

تأمل سعد وجه سلمان بسؤاله ولكن هذا الأخير لم يستطع إجابته لأن الباب طُرق عندها بقوة مما جعل الثلاثة يتبادلون نظرات الذهول والخوف في وقوفهم.

عمران مرتبكاً: "يا ويلي.. هذا هو.. ماذا نفعل؟"

سعد بصوتٍ خفيض: "لا تعيروه اهتماماً، سيطرق الباب حتى يقترب منه أهل الحارة ثم يفر إلى بيتهم"

سلمان: "لا يا سعد، أهلي سيسمعون الطرق وسيردون"

عمران وهو يفرك يديه بتوتر: "افتح الباب يا سلمان وكن طبيعياً"

أحس سعد بالمصيبة القادمة فدار على نفسه لاعناً كل شيء ثم وجه كلامه بغضب إليهما: "لا.. لا.. أقسم بالله أن نتورط إذا فتحت الباب"

سلمان: "سيفتحون أهلي إذا لم أفتح يا سعد"

عمران باحثاً عن أمل: "هل أنت متأكد يا سلمان أنه يريد طماط وبصل؟"

سلمان: "بالتأكيد يا ابن الحلال، أبوهم ميت وحالتهم المادية سيئة"

سعد بشكلٍ قاطع: "طماط وبصل هاااه؟! إذا فتحت الباب طبخت من شعرك كشنة. طماط وبصل قال؟!"

تعالى الطرق على الباب مصحوباً ببرطعات الأبكم غير المفهومة.

سلمان بحيرة: "ماذا نفعل يا شباب؟"

سعد: "أتركه حتى يتعب"

سلمان: "قلت لك سيردون أهلي" جاءت جملة سلمان قاطعة مما جعلهم يسقطون رؤوسهم إلى الأسفل بجهلٍ عما يجب فعله، وقبل أن يطول بهم الوقت كان سلمان قد تمتم بجملته وهو متوجه إلى الباب: "سأفتح وأرى ما سيحدث"

اتجه سلمان إلى الباب عازماً إنهاء الموقف. ذهب يستجمع نفسه ويحاول أن يكون واثقاً ولكنه لم يكد يفتح الباب ويطل برأسه منه حتى دفعه الأبكم بيديه مجتمعتين وانسل إلى داخل الفناء. أطلَّ سلمان بعدها بجسده في الشارع فرأى أبا عمران ومن خلفه المهندس وأهل الحارة كلهم في منتصف الشارع يركضون باتجاهه. أراد العودة إلى الداخل ولكن أبا عمران صرخ فيه من بعيد: "قف.. لا تتحرك" فتجمد في مكانه.

تراكضوا حتى وصلوا إليه وهو يحاول إخفاء ارتباكه، ما إن توقفوا أمامه حتى مد يده مصافحاً أبا عمران الذي يتقدمهم وقال له بهدوء مفتعل: "السلام عليكم"

دفع أبو عمران يد سلمان وقال لاهثاً: "تسلم علينا ونحن القادمون إليك؟! أبعد يدك القذرة عني" ثم بلا مناورات: "أخرج الأطرم من بيتكم يا سلمان"

حاول سلمان استعادة رباطة جأشه: "أهلاً أبا عمران.. كيف حالك؟ كيف حال الأولاد؟"

قال أبو عمران بعصبية واختصار وهو يلتقط أنفاسه: "قلت لك أخرج الأطرم من بيتكم الآن"

"استعذ من الشيطان يا أبا عمران، ماذا تريد من هذا المسكين؟" سلمان محاولاً تهدئة الموقف.

تدخلَ المهندس رأفت: "وأنته مالك يا وش المصايب؟"

نظر سلمان إليه وقال بغيض: "لم أوجه الكلام إليك أيها الأصلع. ابتعد من هنا قبل أن أسدد لك كوعاً يتسبب لك بالشلل"

رد المهندس بسرعة: "كوع ريحة لما يهد سنانك"

أبو عمران وهو يحاول الإمساك بأعصابه: "يا سلمان كلمني أنا ودع رأفت في حاله" ثم موجهاً حديثه إلى الموضوع الأهم: "قلت لك أخرج الأطرم من بيتكم قبل أن أخرجه بنفسي"

قال سلمان بطيبة قلب خالصة: "حسناً.. سأفعل.. ولكني أود معرفة ما فعله هذا المسكين حتى تجتمعون كلكم ضده؟ قد أستطيع مساعدتكم في حل المشكلة"

أبو عمران كان ينفث غضبه كتتين: "أنا أيضاً أريد أن أعرف يا حلال العقد؛ منذ متى وأنت تدافع عن المساكين؟"

اعتقد سلمان أنه وجد إجابة منطقية تُدخل الموضوع في جدلياتٍ قد تضيعه عن محوره فحاول التمسك بها: "جارنا يا أبا

عمران.. إنه جارنا! وقيل قديماً الجار قبل الدار.. كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم وصى بسابع جار"

أبو عمران وهو يكاد ينفجر من الغيض: "سابع جار هاه؟! أنا لو طلبت منك العد من واحد لسبعة لما عرفت الرقم بعد ثلاثة أيها الأكاديمي! وما دمت تهتم بحقوق الجيران، فلماذا تزعج الناس كل يوم في الحارة ولم يسلم من أذاك أحد؟" ثم معيداً الحوار إلى هدفه الأول: "اسمع.. أخرج الأطرم من بيتكم ولا تُطل القصة قبل أن أدوس على رقبتك أنت وإياه"

حاول سلمان احتواء الموقف بالحوار مرةً أخرى ولكن كلامه خرج باهتاً وبلا معنى. أبو عمران في المقابل لم يعد قادراً على كظم غيضه وإمهاله أكثر من ذلك فأمسك بجيب ثوبه وسحبه بقوةٍ إلى الأمام أخلت بتوازنه ثم دفعه إلى الخلف عبر الباب لاوياً ذراعه وراء ظهره ودخل به إلى الفناء وأهل الحارة خلفهما يتدافعون عبر الباب.

فناء المنزل لم يكن كبيراً وليس هناك مخبأ يمكن للثلاثة التواري فيه عن أهل الحارة فسرعان ما وقعت أعينهم عليهم بالداخل ولم يكد عمران ينظر إلى والده حتى سقط على الأرض بركبتيه وعاد إلى خواره قائلاً بتوسل ورأسه إلى الأعلى: "أقسم بالله العظيم أنها انحدرت لوحدها، أنا لم أفعل شيئاً، كنتُ أريد تشغيل الراديو فقط"

لم يكن ما قاله مهماً حينها، فمجرد العثور على الثلاثة مختبئين هنا، سيُظهر الحقيقة كقرص الشمس وسيكونون بلا شك السبب الوحيد في دمار السيارات في الخارج والأبكم المسكين لا دخل له بالحادث.

بدأت المعركة عندها مع أهل الحارة، اشتبكت الأيدي واستطالت الأرجل وراح الركل واللكم ينهال على وجوههم وبطونهم. الجميع كان يضرب بغيض، أبو عمران والمهندس رأفت بسبب سيارتيهما، وأهل الحارة انتقاماً لكل الأيام السيئة التي عاشوها معهم. الثلاثة كانوا يتلقون الضربات بلا مقاومة. سلمان يتلقى الرفس بآهات مكتومة لئلا يسمع أهله ما يحدث في فناء منزلهم، عمران يبكي بخوار بقرة، أما سعد فهو الوحيد بينهم الذين كان يشتم سلمان بصوت مكتوم كلما رأى وجهه بين الأجساد المتشابكة قائلاً: "طماط وبصل هاااااه؟! ألم أقل لك لا تفتح الباب يا حمار"

وقفة:

إذا قمت بعملٍ سيء فلا تفتح الباب، فمن غير المعقول أن يأتيك أحدهم حينها ليطلب منك طماط وبصل.

(٢) حرب خاسرة

في صفين متقابلين من عشرين لاعباً بدأت الهرولة. علي كلاوي يقف في منتصف الساحة المسفلتة التي حُوّلت ملعباً وتتدلى من عنقه صفارة ينفخ فيها بين الوقت والآخر ليرتب طوابير المهرولين وينبههم لتوجيهاته. كل شيءٍ جاهز في مكانه؛ الأبواب الحديدية في طرفي الملعب والشباك منصوبة عليها، أطقم التدريب مكومة في قسمين بانتظار توزيع لاعبي الفريقين، الأعداد المكتملة للاعبين، والإعدادات المُحكمة للمنظمين. كل شيء كان معداً بأفضل طريقة.

المشهد المنظم لم يكن في الملعب فحسب، الجماهير هي الأخرى كان لها دورٌ بارز في إضفاء مهابة وتقدير على ما يحدث. وسواءً أحاطت جماعاتهم بالملعب أم تفرقوا على محيطه فإن وجوههم المتطلعة لبداية المناورة أكسبت التمرين تقديراً وإجلالاً.

البيوت المطلّة على الساحة امتلأت نوافذها هي الأخرى بالمتحمسين من كبار السن أو الصغار الذين لا يُسمح لهم

بالخروج إلى الشارع. هناك أيضاً فتيات مراهقات كن يوزعن إعجابهن على اللاعبين من النوافذ. أما أبرز الجماهير على الإطلاق فهو الرجل العجوز الذي اقتعد كرسياً في شرفة منزله وعلّق خلفه على الحائط علم الأهلي وراح يشير لهم بعكازه بين الوقت والآخر ليلهب حماسهم.

التدريبات ماضية على قدمٍ وساق منذ أسابيع حتى صارت من المظاهر اليومية للحارة. حشد كلاوي لإنجاح الفريق كل الإمكانيات؛ روّج لفريقه في حارات منفوحة كلها، استقطب اللاعبين المميزين، طلب الدعم من أهالي الحارة فلم يتأخروا وشاركوا بأبنائهم وحضورهم ومالهم ومجهودهم حتى بدا الفريق جديراً بالاحترام.

يقوم كلاوي كل يوم بالأعمال الشاقة قبل بداية المران، يحضر مبكراً قبل الجميع وفي يده ملف أزرق مطبوع على غلافه شعار مبتكر لفريقه الذي أسماه النسور. تعاقد مع حيدر على إيصال صناديق الماء والعصير يومياً إلى الملعب. وبمساعدة من يحضرون أولاً، يقوم بوضع الأبواب الحديدية المتنقلة على طرفي الساحة المخططة ويعلق الشباك عليها حتى تحل عقارب الساعة على الخامسة تماماً فيطلق صفارته مؤذناً ببداية التمرين ويصطف اللاعبون أمامه ويسجل حضورهم في الملف الأزرق.

يبدأ المران اليومي بالهرولة والإحماء لنصف ساعة كل يوم. قد يقومون بالتدريبات السويدية مرةً في الأسبوع لرفع لياقتهم وتحملهم وهذا ما يجعل التمرين يمتد إلى ساعةٍ كاملة. بعد ذلك يقسم اللاعبين إلى فريقين متساويين، ثمانية لاعبين في كل فريق، ثم تبدأ المناورة. في بعض الأيام يقسمهم وفق ما تعلمه من فريق الأحمدي حسب استراتيجيات محددة تكشف إمكانياتهم فيجعل أفضل المهاجمين في فريق ويجعل أفضل المدافعين في الفريق الآخر ليتعرف على نقاط القوة والضعف في الهجوم والدفاع ويعرف أي اللاعبين ينسجم لعبه مع لاعبٍ آخر. يجعل في أيامٍ أخرى الكفتين متوازنتين، أو ربما يجعل الفريق الأول يلعب أمام الرديف ليدرس إمكانيات الرديف. كان منظماً ويعرف ما يقوم به ويطبق التكتيكات والخطط الاستراتيجية والبديلة ويدربهم عليها؛ كرات طويلة ساقطة إلى الأمام، هجوم جماعي بتمريرات قصيرة، عرضيات، تمرين على ركلات الترجيح، وتسديدات ثابتة أو متحركة من خارج منطقة الجزاء. كل هذا يدربهم عليه من يومٍ لآخر.

يقيم أيضاً مناورةً يسميها مناورة التحدي. يحدد لها يوماً ويخبرهم بذلك ويجعل أحد اللاعبين البارزين يتحدى لاعباً آخر، ثم ينتقي كلٌ منهما لاعبي فريقه ويقع على عاتق الفريق المهزوم

دفع تكاليف الماء والعصائر للفريق الفائز. لم يقتصر على هذه الطرق لتشجيع اللاعبين، بل كان يلقنهم الأناشيد والأهازيج ويجعلهم يرددونها بشكلٍ إيقاعي أثناء التمارين ليرفع حماسهم ويدفعهم للانخراط فيها بعزيمة متقدة.

منظرهم بأرديتهم الموحدة وجديتهم في التدريبات وترتيب الساحة وتحلّق الجماهير من حولها أو وقوفهم في نوافذ البنايات المحيطة بها وعلى أسطحها، كان يضفي على الأجواء احتراماً وتقديراً من أهالي الحارة ويجعل للفريق مكانةً شعبية انتشرت بين شباب الحارات فتكاثرت أعداد الراغبين في الانضمام الى الفريق مما دفع كلاوي لانتقاء أفضلهم وإبعاد الكثير منهم.

كان كلاوي يصيح فيهم وهو يقف في دائرة المنتصف: "هرولة يا شباب.. ارفع رجلك أنت وإياه.. من لا يأخذ التمرين على محمل الجد لن يلعب اليوم.. هرولة يا شباب" يرتدي قميصاً شبيهاً بقمصانهم الموحدة ولكن لونه مختلف ومكتوب على صدره بالإنجليزية (COACH)

خارج الملعب، وبجانب خط المنتصف تحديداً، وقف عمران بعينٍ مزرقة بين الجمهور وهو يحمل في يده كيساً من رقائق البطاطا الحارة. يلوكها بين فكيه بحركة أفقية كما يفعل التيس،

ويصيح بين الوقت والآخر لكلاوي: "العب يا مدرب.. اضبطهم يا صارم.. يا بطل.. يا قوي"

كلماته كانت تخرج تشجيعيةً في ظاهرها إلا أنها لم تكن تعني سوى السخرية.

نظر إليه كلاوي مع انتهاء الفريق من الدورة الثالثة حول الملعب ولم تكد تبدأ تمارين الإحماء حتى سلّم قيادة التدريب لأحد اللاعبين واتجه إلى عمران متكسراً في مشيه: "غريبة! ما الذي جاء بك إلينا؟"

قلب عمران كيس الرقائق عالياً مفرغاً ما تبقى منه في جوفه قبل وصول كلاوي إليه ثم مسح فمه بساعده وقال: "جئت لأرى تدريباتكم"

"هل تريد الانضمام لفريقنا؟" ودون أن ينتظر الإجابة: "لا تحلم.. العدد مكتمل.. أوقفنا تسجيل اللاعبين" قالها كلاوي هازئاً فعاجله عمران بالرد: "وما الذي أريده من فريق المهرجين هذا؟!"

"أن تتعلم كرة القدم"

"أنا أتعلم منكم؟!" متسائلاً بادعاء لا مبالي: "في حارتنا أشهر لاعب في منفوحة وفي جنوب الرياض كلها. إذا أردت التعلم فسأتعلم من فنان مثله"

أصاب الارتباك كلاوي لما قاله عمران ولكنه درأه بالضحك رغم أن ضحكته المتوترة بدت بلا فائدة: "من هذا؟" تساءل كأنه لا يعرف: "أتعني سلمان؟"

"رغم أن سلمان أفضل من كل هؤلاء القردة الذين جمعتهم في سيركك، إلا أنك تعرف من أعني" قالها عمران بثقة، فهو يعرف وكلاوي يعرف من يعني، وسعد في كرة القدم كالشمس لا يغطيها غربال.

"آها" قالها كلاوي كأنما يستدرك: "تعني سعد؟!.. حسناً.. من المؤسف أن أقول لك يا أستاذ عمران أنك مخدوع. ولأن معرفتك لا تتجاوز البراحة التي تجلسون فيها، فأنت لا تعرف أن هناك أفضل من سعد صديقك"

ثم وقف كلاوي بجانب عمران ومد ساعده الأيمن حتى أراحه على كتفيه وألصق رأسه برأسه وأشار بيده اليسرى إلى أحد اللاعبين وهو يقوم بتمرين الاستطالة: "أترى ذاك الذي يرتدي الشورت السماوي؟" وأكمل بعد أن تأكد من رؤية عمران له: "هذا عبود الأعور، حصل على جائزة أفضل لاعب في آخر بطولة أقيمت في الشفا" وبعد أن أعاد جسده إلى الخلف حدّق في عينيه وهزَّ رأسه عمودياً: "أتعلم أنه سجل هدفاً في تلك البطولة من

منتصف الملعب؟!" وأشار بكفه الملتوية أمام وجه عمران ليخبره أن الأعور يسدد كراتٍ لولبية.

"وكيف يستطيع اللعب بعينٍ واحدة؟!" لم يكن عمران يتساءل بسخرية محضة، ولكن المسافة البعيدة جعلته غير متأكد إذا ما كان عبود أعوراً في الحقيقة.

"إنه اسمه يا أحمق.. إنه اسمه" ثم ممسكاً بزمام السخرية ما دام قادراً على ذلك: "معلوم.. لم تعرف في حياتك سوى العاهات من أمثال سلمان وسعد"

"لا يهم.. لن يتوسم أحد منه خيراً ما دام اسمه الأعور.. ثم لماذا يفعل بنفسه هكذا؟"

"ماذا تعني؟"

"لماذا يرتدي شورت سماوي؟!" ثم نظر إلى كلاوي: "أعورك هذا بحاجة إلى تدريبات في ذوق الملابس وليس تدريبات في كرة القدم"

أهمل كلاوي ما قاله عمران وأعاد رأسه بجانب رأسه مرةً أخرى وأشار إلى لاعبٍ آخر: "أترى هذا الأسمر الواقف عند نقطة المنتصف؟" أشار إلى شابٍ يشبه تمساحاً يقف على قدمين: "هذا جميل بن مرضاح.. حضرمي.. نادي السد القطري.. نادي العين

الإماراتي.. وأندية أخرى في الخليج عرضت عليه الجنسية لينضم إليها ولكنه رفض لأن والديه لا يريدون ترك السعودية"

أبعد عمران يد كلاوي عن كتفه قائلاً: "وما المهم فيما تقوله؟! لو كان أعضاء فريقك كلهم محترفين في أوروبا فلن يستطيعوا أن يقتربوا من مهارة سعد" ثم مستدركاً نفسه: "أتعلم أن أهل الحارة اشتكوا لوالده بسببه؟!" ثم منفعلاً: "الكثير من الناس يأتون إليه يومياً بعد صلاة الظهر وتصطف سياراتهم في الشارع منتظرين خروجه من منزلهم ليطلبوا منه اللعب معهم في بطولة أو مباراة تحدي مما سبب إزعاجاً في الحارة" ثم مضيفاً: "وإذا كان صاحبك الأعور يسجل الأهداف من منتصف الملعب، فسعد يستطيع تسجيلها من المرمى للمرمى"

كل ما قاله عمران كان كذباً بواحاً لا يصدّقه أحد، ورغم شهرة سعد ومهاراته الفذة التي لا يُختلف عليها، إلا إن ما قاله مبالغة لا يمكن إثباتها، ولكن حديثه مع كلاوي تحوّل إلى منازعة كلامية فلم يُرد خسارتها.

"أتعلم يا عمران؟!" ثم بثقة وهو يحدّق في وجهه: "لو جاء إلينا سعد متوسلاً الانضمام إلى فريق النسور فلن نسمح له بذلك" لفظ كلماته الأخيرة بشكلٍ متقطع ليؤكد ثقته فجاءت إجابة عمران سريعة:

"هذا مستحيل وأنت تعرف ذلك ولذلك تقوله. ولو كنتَ تملك أملاً بحجم الذرة في مجيء سعد وطلبه الانضمام إليكم لما قلته"

استولت الضغينة على كلاوي من ثقة عمران بسعد فلم يستطع العودة إلى ضحكاته المخادعة، ورغم تفاهة ما يقوله حمران وكذبه الواضح وسهولة دحضه، إلا أن كلاوي لا يستطيع السيطرة على مشاعره المُبغضة لسعد ما إن يأتي أحدهم على ذكره.

في هذه الأثناء أنهى الفريق في أرض الملعب إحماءه وأوشكوا على الشروع في المناورة فأراد كلاوي أن يقول شيئاً قبل ذهابه إليهم: "اسمع يا عمران.. إذا كنتَ على هذا القدر من الثقة بصديقك، فأنا على استعداد لتحديكم في مباراة بين حارتنا وحارتكم.. هذا إذا كان سعد يمتلك الشجاعة لقبول التحدي"

أجابه عمران بلهفة: "ولماذا لا يقبله؟"

كلاوي: "لأنه سيخسره!"

عمران: "وكيف سيخسره؟" ثم بنظرةٍ مزدرية إلى الفريق في الساحة: "من هذا الفريق؟!"

كلاوي: "حسناً إذاً.. قل له أني أتحداكم"

عمران: "ونحن قبلنا التحدي"

كلاوي: "هل أنت متأكد؟"

عمران: "بدون أدنى شك" قالها بعزيمة.

كلاوي: "ألا تحتاج إلى موافقة من سعد؟"

عمران: "سعد لن يرفض لي طلباً"

ابتسم عندها كلاوي بخبث وهرول إلى زملائه في الساحة قبل أن يتوقف على بعد خطواتٍ منه ويستدير إليه قائلاً: "حسناً.. حدد الموعد مع صديقك وأبلغني به" وركض إلى فريقه.

* * *

جلس سعد على منحدر باب بيتهم متأملاً الشارع الفارغ، الكدمات الملونة تتوزع على جسده والآلام تسيطر على تحركاته فلا يستطيع الجلوس أو الوقوف دون أن يشعر بالوجع. الأمس كان يوماً سيئاً بالنسبة له، تعرض لإهانة قاسية وضرب مبرح ولكن أحداً من أهله لم يعرف ما حدث له. مثيب النمام _كما يحب تسميته_ شك في الموضوع عندما رآه يضع لاصقاً على جرحٍ في جبينه أمام مرآة الحمام، جرح، أو خدش صغير فوق عينه اليسرى متطرفاً إلى اليسار قليلاً. سأله النمام عندها عن سببه ولكن سعد صرخ في وجهه وطرده من المكان. ثم إن النمام لم يهدأ، ظلَّ يطارده بنصائحه ويراقبه ويسأله بين الوقت والآخر ويحاول معرفة ما حدث له مما رفع وتيرة توتره. أما باقي أفراد العائلة فهم لا

يهتمون به ولا يحاولون التدخل فيما يفعله لأنهم يعرفون أنه بؤرة للمشاكل، وإذا كانت المشاكل لم تحدث لك، فمن الأفضل السكوت عنها كي لا تتسع دائرتها فتبتلعك.

مشاعره ترددت بين الحزن والإحباط والإهانة لما حدث، لا يريد التحدث إلى أحد ولا يريد مشاركة همومه مع أحد، ولكنه لا يستطيع المكوث على هذه الحال طويلاً. نظر إلى آخر الشارع حيث بيت سلمان وبعده بيت عمران. لم يشاهد أحداً منهما. ثم خرج من مكانه منحدراً لخطوات حتى توقف في منتصف الشارع. نظر في أفقيه مستطلعاً قبل أن يمد ساقيه الطويلتين نحو البراحة مستمتعاً بوحدته.

بدأت همومه تنقشع مع كل خطوة، يمشي بمنتصف الشارع الضيق ولا يريد طرق باب أحد من رفاقه. يريد البقاء وحيداً لبعض الوقت، لبعض الوقت وليس طويلاً. وعندما وصل البراحة وأراد الدخول من بين السيارات التي تسد أولها، رأى عباءةً تخرج من بيت عمران فتوقف في مكانه واستطال بجسده من على أسقف السيارات وطالعها فإذا بصاحبتها تغلق الباب خلفها بتمهل وتنحدر عن الدرج وتسير إلى أول الشارع باتجاهه.

"هلا والله"

رحب بها هامساً وهو يحني قامته متوارياً عنها بين السيارات. توقف عن التوغل في البراحة وقرر انتظارها. كانت تتلفع عباءةً مغبرة وترتدي بنطالاً قطنياً ضيقاً كشفت عنه عندما فتحت عباءتها بعد نزولها على الأسفلت ثم أعادت لفها على جسدها. فكر بشكلٍ مباشر في عمران، لا يريد معاكسة أحدٍ من أهله. ولكنه يعرف أن عمران ليس لديه إلا أخت وحيدة صغيرة، ربما تكون في التاسعة. إنه صديقه حتى لو كان يزدري هذه الصداقة. وهذه الفتاة التي يشاهدها تخرج من بيتهم ربما تكون من أقربائهم، أو إحدى جاراتهم. مشيتها المريبة جعلته يتأكد أنها ليست من أهل عمران، فلقد كانت تتثنى وتقرع الأرض وتطالع البيوت من حولها بفضول كأنها تشاهد المكان لأول مرة.

لم تتنبه له حتى اقتربت من البراحة ففاجأها من بين السيارات قائلاً: "مساء الخير يا جميل"

جفلت الفتاة مبتعدةً نحو طرف الشارع، أصابها الخوف وسقطت عباءتها على كتفيها وتخبطت وهي تعيدها على رأسها والعبوات المعدنية تصطفق في الكيس البلاستيكي الذي تحمله. ثم حثت خطواتها مسرعةً في الابتعاد عنه وهو يلاحقها: "خفي علينا.. لا تستعجلين"

نظرت إليه من نقابها بعينين متضيقتين ثم استدارت إلى الأمام ولم تجبه. كان يقترب منها محاولاً المشي بجانبها وهو يراقب الشارع ليتأكد أن أحداً لا يشاهده.

"من أي منزلٍ طلع القمر؟ لم أكن أعرف أن العسل يقطر من هذه البيوت القديمة"

انهمكت في سيرها ولم تنظر إليه، تركته يقول ما يريد وقلبه يخفق بالوجل والإعجاب ومحاولة اقتناص الفرصة.

"هل هذا بيتكم؟" قال ذلك وهو يعني البيت الذي خرجت منه ثم أكمل: "لا أعتقد.. هذا الجمال لا يمكن أن يسكن هذه البيوت القديمة. لا بد أنك جئت لزيارة أقربائك مثلي"

نطق كلماته بوضوح وتمهل ليُظهر شجاعته. حبك قصته المختلقة وقرر الادعاء بأنه ليس من ساكني الحارة وأظهر جهله بها وبأهلها. ولأنه متهور ومعتد بنفسه ويعرف أنها ليست أخت عمران، فقد توهم أنه سيستطيع جذب انتباهها عندما يقول إنها لا تستحق العيش في هذه الحارة.

"شدتني خطواتك وأنت تسيرين في الشارع.. كنتُ أعتقد أنك ترقصين ولم أتيقن أنها مشيتك.. غزال! غزال لعوب يجفل من ظله"

أيضاً لم تجبه، تحث خطواتها مسرعة إلى أول الشارع المفضي إلى شارع عشرين. أما هو فكان يعتقد أنه لبق في حديثه مما سيوقعها في حبائله.

"اسمي ماجد.. جئت إلى هنا لزيارة أحد الأقارب" ثم ليضفي ألفةً من التشابه بينهما: "مثلك" وعندما لم تجبه راح يستطرد في كذبه: "كنتُ أتمشى بين الحارات حتى وصلت إلى هذا الشارع وأعجبني منظر هذه البيوت القديمة. إنها موضوع جيد للتطور العمراني الحضاري ويجب تصويرها" ثم كمن يتذكر: "آه.. لم أخبرك أني صحفي! ونحن المثقفون لدينا رؤى إبداعية عن الماضي وهذه الحارة تشكل كنزاً بالنسبة لنا"

ادعاءاته المقولبة لم تحرك ساكناً في الفتاة حتى الآن.

"بيتنا في العليا، أما سيارتي فهي لكزس. والحقيقة أني خشيت عليها من أولاد الحي فجئت إلى هنا بسيارة أجرة"

كانا يمران من أمام بيت سعد الذي شعر أنه كذب بما فيه الكفاية ويجب عليه الدخول الآن في صلب الموضوع قبل وصولهم شارع عشرين الصاخب.

"سأعطيك رقم هاتفي.. هل تريدين رقم هاتفي؟"

وعندما لم تنظر إليه أو تنبس ببنت شفة: "لا تخافي، لن أعرضك لأي مشكلة ولن أطلب منك شيء لا تريدينه. أريد رقم

هاتفك للتعارف فقط.. وإذا كان لنا نصيب فقد تتطور علاقتنا لما هو أبعد من ذلك. فأول الحب إعجاب وأنا في الحقيقة معجب بك"

ظنَّ كلامه مقنعاً وأنها ستتجاوب معه، ولأنه بلا ذوق؛ لم يلاحظ ارتباكها المتزايد كلما اقترب منها وأكثر في حديثه معها. وعندما استولى عليه الشيطان، حاول الإمساك بيدها ليشعرها بحرارة مشاعره ولكن يده لم تكد تلامس يدها حتى قفزت الفتاة خطوةً جانبيةً مبتعدةً عنه ثم استدارت وعادت بجذعها نحوه وضربته بالكيس المثقل بالعبوات المعدنية على وجهه بقوة.

هشمت وجهه في لحظة فتوقف في مكانه بينما أكملت سيرها. ظلَّ ينظر إليها وهي تبتعد غير عابئة به لتصل إلى آخر الشارع وتلقي عليه نظرةً بلا ملامح ثم تغيب في المنعطف وهو يمسك فكه.

كادت أسنانه تتساقط. وقف مذهولاً ومتوجعاً ويشعر بسائلٍ لزج يتسرب من بين أسنانه وعندما بصق على الأرض شاهد الدم يلطخ الأسفلت أمامه. طالع الشارع في أفقيه ليتأكد أن أحداً لم يره، ثم عاد ممسكاً بفكه إلى البراحة والخيبة تتملك مشاعره.

كان يسير ويمسد وجهه على إثر الضربة التي لم يستطع تفاديها. يلح فضوله على معرفة الفتاة التي ظهرت في حارتهم فجأة ولكن ألمه كان أكثر إلحاحاً فلم يستطع التفكير جيداً. دخل

من بين السيارات حتى توغل في البراحة وأقعد مؤخرته على الطوب وهو يدلك وجهه من ضربة العبوات أو جسده من كدمات الأمس. سعادة متحفظة ترددت في صدره وهو يحك وجهه وجسده لتلك النظرة الأخيرة التي ألقتها عليه. شعر أن هناك أمل معها، ربما ينجح في إقناعها مستقبلاً. بدا له الأمر شهياً وهو يفكر فيها، وجودها في الحارة وصلتها ببيت عمران قد تتيح له لقاءاتٍ كثيرة في المستقبل وعلاقة وطيدة ما إن تقتنع بالتعرف عليه.

"ولكن كيف يمكن إقناعها بأخذ رقمي؟!"

قالها لنفسه متسائلاً عندما وصل إلى مربط الفرس. حرك جسده وزفر وهو يتأمل ويأمل نجاح خطوته الأولى؛ أن تأخذ رقمه! ثم بعد ذلك تهاتفه ويرى ما سيحدث معها. ساقه خياله إلى أبعد من ذلك؛ فكر باسمها، خمن متردداً بين الأسماء التي قد تقولها له لأنه يعرف الفتيات جيداً، وهن يكذبن بأسمائهن كما يكذب الشباب.

"الهنوف، العنود، ريما.. "

رددها مع نفسه وهو يتخيل حديثهما الأول في الهاتف ويجمع المواضيع التي يمكنه قولها دون أن يُغفل كلماته المعسولة ويسترجع القصائد التي يحفظها حتى أخذه الطرب وشعر برغبةٍ في الغناء. ذكّرَ نفسه باسمه الذي قاله لها، (ماجد) لا يريد نسيانه

ولو كان يملك قلماً حينها لكتبه على ساعده. وبعد أن أخذته أحلامه دخل في مزاجٍ واثق، معتدٍ بذاته، شعر أنه يتسم بالذكاء ويجب عليه ترك الأمور حتى تُطبخ على نارٍ هادئة. "الانتظار فضيلة الحكماء" قالها لنفسه وهو يتراجع بظهره إلى الخلف ويشمخ بأنفه ويُراجع مقولته في عقله دون أن يشك فيما يتسم به رغم أن رفيقيه يدفعانه إلى الحماقات بين الوقت والآخر.

وقبل أن يسترسل في غيّه جاءه صوت سلمان من بين السيارات: "الله الله.. ما الذي تفعله وحيداً هنا؟!" وما إن استكمل إظهار جسده من بين السيارات حتى لحق به الأبكم بابتسامةٍ جوفاء لا معنى لها.

"ألا يستطيع أحد أن ينعم بالسكينة في هذه الحارة البغيضة؟" قالها سعد وهما يتقدمان نحوه فجاءه رد سلمان: "يا رجل.. أنت لا يحق لك قول هذا" فنظر إليه سعد بتعجب وهو يكمل: "أنت سبب كل ابتلاءات الحارة.. ولولا وجودك فيها لكانت أفضل حارة في الرياض"

ثم عندما وقف أمامه: "خطرك لا يقتصر على المشاكل الأمنية والفوضى.. بل إنك السبب الأول في انهيار أسعار العقار في منفوحة، ولولا وجودك في الحارة لارتفعت أسعارها"

"من أين أتيتم؟"

"خرجت من البيت فوجدت الأطرم أمامي فجئنا إليك"

"وكيف عرفتما أني هنا؟"

"وأين ستكون؟ في البيت مثلاً أيها المهذب؟!" ثم أكمل: "الشارع بالنسبة لك هو بيتك.. وأينما ذهبتُ في هذه الشوارع فسأجدك أمامي" ثم متمثلاً: "عكوز بكوز في كل مكان مركوز"

"لماذا جئت به معك" همس بها سعد مشيراً إلى الأبكم ما إن جلس سلمان بجانبه.

"لم آتِ به، هو رآني قادم إليك فتبعني"

جلس الأبكم على قدميه مستقبلاً سعد وهو ينظر إليه بابتسامةٍ بلهاء، لم يبرطع ولم يتحرك ولم يبتعد عن وجه سعد وهذا الأخير يصرف نظره عنه.

"لماذا ينظر إليّ هكذا؟" سأل سعد سلمان.

"يحبك... معجب بك!.. أنت حقاً إنسان متكبر" ثم مستشهداً: "اللي يبينا عيت النفس تبغيه.. واللي نبيه عيا البخت لا يجيبه"

"أنا لا أريده. ألم ترَ ما فعله بالأمس.. لقد ورطنا معه!"

بدأت علامات الضيق تلوح على وجه الأبكم ما إن سمعَ ما قاله سعد وانسحب متحاملاً على نفسه وجلس بجانب سلمان الذي أجاب سعد: "عمران الكلب هو من ورطنا.. قلنا له ألا يعبث

بسيارة رأفت ولكنه تمادى في غيّه.. دائماً يفعل ذلك ومهما حذرناه يذهب تحذيرنا هباءً.. أذن من طين وأذن من عجين"

"أتعلم يا سلمان أنـي عندما أراك أو أراه أتشاءم منكما"

"لماذا؟"

"لأنكما سبب المصائب، منبعها الأصيل ومكمنها الذي تندلع منه لتبث حممها في أرجاء الحارة"

لم يكد يتم سعد جملته حتى جاءهم صوت عمران من مقدمة البراحة فرفعوا نظرهم إليه وهو يُطل برأسه الكبيرة أولاً ثم يسحب جسده من بين السيارات ويتجه إليهم. كان يدب ويبتسم ابتسامةً صفراء تحاول استجماع ثقتها، يمشي متجهاً إليهم بتردد ولا يتجه إليهم باستقامة. يكاد يتوقف في مشيه وينظر إليهم من بعيد ثم لا ينظر رغم أنهم أمامه.

قال سلمان رافعاً صوته: "جبنا سيرة القط جانا ينط" أما سعد فقال بصوتٍ يتعمد به إسماع عمران: "الآن جاءت المصيبة!"

كان يقترب منهم بحذر أشعر سعد بخطورة ما جاء به، ولم يكد يصل إليهما حتى قال: "سامحك الله يا سعد، اليوم بالتحديد لا يجب عليك قول هذا!"

"وما الذي يجب عليّ قوله عندما أراك؟"

كان يتقدم بوجهه إلى سعد مبتسماً حتى وقف أمامه وقال بلا تأخير: "بل جئتك اليوم بشيءٍ تتمناه منذ زمنٍ بعيد"

"وما الذي أتمناه ولم يأتِ به إلا أنت يا غراب البين؟"

"ما تحلم به وما تتمناه طوال عمرك" أخرج سعد تنهيدةً متذمرة وعمران يكمل: "بل إن ما جئت به اليوم سيغيّر وجهة نظرك فيّ وسيجعلك سعيداً بلا شك"

"لا أظن" قالها سعد باقتضاب.

"اسمع مني هذه المرة فقط" وعمران يتحين الفرصة.

نظر سعد فيما حوله مستجدياً حلمه: "هات ما عندك"

"كنتُ قبل قليل في ملعب كلاوي. إنهم يقيمون تمريناً هناك. لقد جمع قردة منفوحة وضمهم في فريق متهالك. أتعلم ماذا قال؟"

"ماذا قال؟"

"قال لي أنك لست أفضل لاعبٍ في منفوحة!" ثم وهو يحدّق في سعد الصامت: "وقال إن لديهم لاعباً أعور أفضل منك!.. هل تصدّق هذا؟! أعور وأفضل منك!"

لم يُبدِ سعد أي تعجب أو تفاعل، بل إنه كان ينتظر من عمران أن يقول شيئاً مهماً دون أن يفعل هذا الأخير.

"لم يقل هذا فقط" أكمل عمران.

"وماذا قال أيضاً؟"

"قال ساخراً أنك تتمنى الانضمام إلى فريقه.. هل تصدّق هذا؟" ثم مستغرقاً في انفعاله المندهش: "أنت يا سعد.. أفضل لاعبي كرة القدم.. تتمنى الانضمام إلى فريق العاهات هذا؟"

"هل قال ذلك حقاً؟" الآن أثار حفيظته.

"أقسم لك"

ثم همهم سعد بغيضه وعمران يعيد كلامه: "تخيل! هذا الأبله يعتقد أنك تريد الانضمام لفريقه؟!" وضحك بتصنع: "ولكن لا تخف.. لقد رددت عليه حتى أسكته.. قلت له أن سعد لو لعب ضد فريقك وحيداً لفاز عليهم"

استحسن سعد هذا الرد الأخير الذي لم يقله عمران ولكنه ظلَّ متوجساً من حديثه القادم الذي بات متأكداً أنه لن يعجبه.

كانت رؤوس الثلاثة (سعد، سلمان، الأبكم) تتابع عمران في جلوسهم وهو يكمل تمثيليته واقفاً: "قال لي عندها أثبت ذلك، وإذا كنتَ ترى أن سعد أفضل لاعب في منفوحة، فأنا أتحدى حارتكم في مباراةٍ نلعبها هنا وتشهدها منفوحة كلها" ودون أن يبعد عمران ابتسامته المفتعلة عن وجهه وبكلامٍ متقطع: "إنه يريد أن نلعب معهم... حارتنا ضد حارتهم.. في تحدي.. ألم أقل لك أنني أتيتك بما تتمناه؟!" ثم بعد صمتٍ لم يطل: "لقد وقع البغل.. لقد تورط

بمباراة سيخسرها. إنها فرصتك يا سعد لتُري الناس حقيقة هذا المنتفخ الذي لا يعرف عن كرة القدم شيئاً"

لزم الصمت بعدها بوجهٍ ينتفخ بابتسامته، أراد سماع رأي سعد ولكن هذا الأخير لم يحرك ساكناً بل ظلَّ يطالعه بتمعن لوهلة وهو يمسك فكه الموشوم بالعبوات المعدنية ويمسح جانبي ساقيه ويقول بلا اهتمام: "هل هذا ما لديك؟" وبعد أن هزَّ رأسه وعمران ينظر إليه دون معرفة ما يجب قوله: "هل هذا ما جئت تقوله لي وتعتقد أني سأسعد به؟"

قال عمران: "ألم يعجبك الأمر؟" ثم بتردد: "ألا ترى أنها فرصة جيدة؟"

"أبداً" قالها سعد جازماً ثم أكمل بتؤدة: "أولاً هذا أمر لا دخل لي فيه.. إذا كنتَ تريد أن تتحدى كلاوي فتحداه لوحدك.. أنا لا دخل لي بينكما" وبعد أن علت الصدمة وجوه مستمعيه: "وثانياً الناس تعرف أني أفضل لاعب في منفوحة ولا حاجة لإثبات ذلك لك أو لشوال الرز كلاوي"

تدخلَ سلمان عندها في الحوار: "اسمع ما يقوله هذا الأبله! الفرصة تصل إليه ولا يريدها"

ودار الحوار بينهما بتتابع.

سعد: "عن أي فرصة تتحدث؟"

سلمان: "هزيمة كلاوي وفريقه في قعر دارهم"

سعد: "اسمها عُقر دارهم يا حمار!"

سلمان: "لا يهم.. المهم أن نهزمه ما دام تحدانا" ثم أدار وجهه إلى عمران: "متى موعد المباراة؟"

عمران بحماس: "لم أحددها معه.. قال لي اختاروا الوقت المناسب وهو مستعد"

سلمان: "خير البر عاجله.. اذهب وقل له أننا سنأتي إليهم غداً"

سعد مقاطعاً حديثهما: "العبوا لوحدكم.. لن ألعب معكم"

سلمان بلا اهتمام: "ليس مهماً يا مارادونا.. لا تلعب" ثم لعمران: "كم نحتاج لاعباً؟"

عمران: "ثمانية"

سلمان: "ألا يكفي أن نلعب نحن الثلاثة ضدهم.. وليلعبوا هم ثمانية لا مشكلة لدينا"

ضحك سعد مما قاله سلمان والأبكم انحنى بجسده ليتوسط الجالسين متأملاً باهتمام.

عمران: "لا أعتقد أنه سيوافق، إنه يتحدى سعد بالذات" ثم موجهاً حديثه إلى سعد: "يا سعد لا تفوّت الفرصة، أنا ذهبت إلى ملعبهم ورأيت تدريباتهم، هناك لاعبين من الشفا واليمامة وغبيرة.

كما أن الساحة مليئة بالجماهير. حتى النساء والفتيات والشيوخ يتابعون التمرين من نوافذ وشرفات البيوت المطلّة على الساحة. وهذا ما سيجعل فضيحته مسجلة، مشهودة، لن يستطيع إنكارها طول العمر"

سلمان هامساً بأذن سعد: "أسمعت؟ لديهم فتيات في النوافذ!" قالها وهو يعني شيئاً فنظر إليه سعد بارتباك ولكنه سرعان ما عاد إلى الموضوع المهم باستعطاف: "يا رجل دعنا نهزمه، دعنا نلقنه درساً لا ينساه"

سعد: "وكيف سنهزمه؟ بك وبعمران؟ أنتما لا تصلحان إلا للعراك أو السرقة" ثم أدار وجهه بعيداً: "وأشك أنكما ستفلحان فيهما"

سلمان مصدوماً: "عجيب! ألا تعرف أني كنتُ قائد فريق الفصل؟"

سعد: "بالقوة يا سلمان بالقوة. كنتَ تضربهم ليشركوك في دوري المدرسة"

سلمان: "هذا ليس صحيحاً"

سعد: "بل صحيح وكلنا نعرف ذلك"

عمران: "اسمع مني يا سعد ولا تفوّت الفرصة.. جاءتك الفرصة فلا تضيّعها"

سلمان: "قلنا له خذ خير قال ما عندي ماعون"

سعد: "ماعون يشق رأسك يا أبا الحكم والأمثال.. حتى لو سايرتكما جزافاً فنحن لا نملك ثمانية لاعبين"

عمران: "من قال ذلك؟"

سلمان: "عُد"

سعد: "عُد أنت"

فرد سلمان أصابعه أمام وجهه وراح يعد: "أنا، أنت، عمران" ثم جذب الأبكم كم ثوبه بقوة وهو يبرطع مشيراً لنفسه حتى قال سلمان: "والأطرم" ثم تبلبل وهو يفكر: "وأبناء خالتي سيصلون من الكويت بعد أيام وهم يلعبون في نادي القادسية.. كم أصبحنا؟.. قل لي كم أصبحنا؟" كان يفرد أصابعه أمام وجهه بحماس ولا يمكنه الحساب لفرط إنفعاله.

سعد: "ستة.. ستة يا سلمان.. ونحتاج إلى لاعبين أيضاً.. كما أنك تنتقي المجانين وتضعهم في فريقنا.. كيف يستطيع الأطرم أن يلعب معنا؟"

عمران: "وما المشكلة في ذلك؟"

سعد: "كيف يستطيع التحدث إلينا وتوجيهنا في الملعب؟"

سلمان: "سأترجم لكم"

سعد: "وهل أصبحت تعرف لغة الإشارة؟"

سلمان: "لا" ثم وهو يحك رأسه: "ولكنها موهبة حباني الله بها، أنا أفهم ما يقول وأستطيع أن أقوله لكم"

سعد: "أعتقد أنك صدّقتَ نفسك أكثر مما يجب!"

سلمان: "أنت تكرهه بلا سبب"

سعد بعد أن ضاق ذرعاً بالموقف: "يا سلمان افهم.. افهم يا سلمان.. كرة القدم تحتاج إلى تواصل بين اللاعبين في وقت قياسي.. في لحظات.. والأطرم لن يحسن إرشادنا في الملعب. يجب عليه تنبيهنا إذا تسلل لاعب من خلفنا أو عندما يطلب الكرة لنمررها له" قالها بتذمر.

لم يعرف سلمان ما يجيب به، أما الأبكم فقد أغضبه ما سمعه، كان يستمع إلى الحوار بصمت ويجامل سعد بابتسامته منذ وصوله وعندما جاء نبأ المباراة أراد المشاركة فيها ولكن سعد جعله يندم على تزلفه، فلم يزد على أن قام غاضباً وزفر في وجه سعد وعاد إلى بيتهم وهو يبرطع.

سلمان: "أعتقد أنك أغضبته"

سعد: "لا يهم"

عمران: "لا بأس.. لن نشرك الأطرم معنا.. نحن خمسة الآن!"

سعد وهو ينظر إلى سلمان بتدقيق: "مع أبناء خالة سلمان الذين لا نعلم هل سيصلون حقاً أم لا"

"بقي اثنان" قالها سلمان.

سعد: "بل ثلاثة يا مغفل!"

سلمان: "أخوك مثيب.. أخوك مثيب لاعب جيد"

سعد: "لن يقبل اللعب معنا"

عمران: "لماذا؟"

سعد: "لأنه لا يحبني.. إنه يتحين الفرص لإبلاغ والدي عما أفعله في الحارة. وإضافةً إلى ذلك فهو ملتزم ويرى أن كرة القدم مضيعة للوقت ويسميها بيضة إبليس" ثم بنبرةٍ قاطعة: "أبداً لن يوافق على اللعب معنا"

وبعد تفكرٍ قال سلمان: "لا بأس.. كم بقي الآن؟"

"ثلاثة!" أجابه عمران وهو يفكر ثم أكمل عندما طرأت على باله الفكرة: "أحضر أنت يا سعد ثلاثة من أصدقائك الذين تلعب معهم"

نظر سعد إلى عمران متسائلاً: "هل التحدي يسمح بذلك؟"

عمران: "ولم لا؟ كلاوي لم يشترط شيئاً"

سعد: "ولكن التحدي بين حارتنا وحارتهم!"

سلمان: "لنعتبرهم محترفين أجانب"

سعد لعمران: "وهل يمكنني إحضار فريق كامل من خارج الحارة؟"

سلمان: "صَدَق المثل: عنز الشعيب تحب التيس الغريب"

نظر سعد بغضب إلى سلمان قائلاً: "ماذا تعني بمثلك القبيح هذا؟"

سلمان: "بل قل لي أنت.. لماذا لا تثق في أصدقائك؟"

احتشد الكلام عندها في صدر سعد حتى أطلقه دفعةً واحدة بغضب: "كن واقعياً لمرة واحدة في حياتك يا سلمان.. أنت وعمران لا تجيدان كرة القدم" ثم بتذمر: "يا إلهي.. لست أعلم لماذا أفعل ذلك معكما وأنا أعرف أنكما لا تعرفان الفرق بين ركلة الجزاء وركلة الزاوية؟!" ثم بحزم: "اسمعا مني.. لن أعيد هذا الكلام مرةً أخرى.. هذه المباراة لن ألعبها.. لن أورط نفسي في هذا.. لن أجعل كلاوي يسخر مني بسببكما.. الجميع يعرف كلاوي ويعرفني ويعرف قدرات كلاوي ويعرف قدراتي.. إنها حرب خاسرة لن أدخلها مهما حاولتما"

وقفة:

هذا زمن الحمقى، كل الحكماء ماتوا، لم يتبقَ منهم أحد ولن ينجب المستقبل رجلاً حكيماً في يومٍ ما، فلا تظن أنك ستلتقي أحدهم حتى لو كان في رواية.

(٣) أبو جابر

انتشر المصلون من المسجد، تتابعوا في خروجهم من صلاة العصر وتفرقوا على الأزقة نحو حاراتهم ثم بيوتهم هاربين من الشمس الملتهبة وسعد يجلس على حوض البيك الخلفي ويطالع المارة في آخر الشارع وهم يتسربون إلى بيوتهم أو يخرجون منها. كان بعض الصبية يمرون به فيسخر منهم أو يسخرون منه. سمعَ صوتاً قادماً من آخر الشارع فإذا بأبي عمران يخرج غاضباً فقال لنفسه وهو ينظر إليه: "هذا الرجل حاد المزاج.. أعان الله أهله" ثم مرَّمسرعاً بسيارته من أمام بيت سعد وهذا الأخير ينظر إليه بتعجب.

مثيب كان أول العائدين من المسجد وهو يمشي بسكينة ويجرُّ بأصابعه الشعيرات المتفرقة في ذقنه معتقداً أنه يستطيع زيادة طولها بهذه الطريقة. أطلَّ على شارع بيتهم فرأى سعد يجلس على باب حوض البيك آب وحيداً وهو يهجس في مخيلته. وبعد أن اقترب منه وألقى تحيته سأله: "صليت؟"

نظر إليه بطرف عينه وقال: "ماذا الآن؟ أستمثل عليّ دور الداعية؟"

"لا" أجابه مثيب ثم أكمل: "ولكني أخاف عليك"

أجابه سعد بلا اهتمام: "الحمد لله أنا أصلي وليس هناك ما يدفعك للخوف عليّ"

"وأين صليت؟ في البيت؟"

"لا شأن لك"

"أنا أخوك يا سعد، وصدقني تهمني مصلحتك، والصلاة مع الجماعة أفضل من الصلاة منفرداً بسبعٍ وعشرين درجة.. لا أريد أن يفوتك هذا الخير كله"

"ومن قال لك أني صليت منفرداً؟" قالها سعد متحدياً.

"ومع من صليت؟ مع أمي؟" بسخرية.

"لا.. صليت مع سلمان وعمران قبل قليل"

"أين؟"

"في البراحة"

"هل تسخر مني؟!"

"لا.. قلت لك الحقيقة"

"إنكم تتخذونها مبولة! إنها أرض نجسة! كيف تصلون فيها؟!"

ثم بعد أن تجهم سعد أكمل مثيب: "وأين سلمان وعمران؟"

"عادا لبيتيهما"

"إذاً أنتم تجتمعون للصلاة في مبولة وتتفرقون كما لو كانت مسجداً. اتقِ الله يا سعد.. أنت لا تفرط بصلاة الجماعة فحسب، بل تكذب عليّ الآن فتزيد وزرك وزراً"

"لا حول ولا قوة إلا بالله" قالها سعد بتذمر ثم رفع رأسه فرأى سلمان في آخر الشارع يقف مع الأبكم فأشار إليه: "هاه.. أنظر.. هذا سلمان لم يدخل بيتهم بعد.. هل تأكدت الآن؟"

"وأين عمران؟"

أجابه سعد بسخرية: "يحب أن يصلي الراتبة في بيتهم!"

"ولكن صلاة العصر ليس لها راتبة!"

أدار سعد وجهه فيما حوله قبل أن يطالع وجه أخيه بتأمل ويقول له: "مثيب.. لماذا لا تذهب للجهاد؟"

"هل تريد التخلص مني؟"

"بكل تأكيد"

"سامحك الله يا سعد.. أنت أخي الأكبر وأنا أحبك"

كان مثيب يقف أمام سعد فلم يتنبه إلى والده القادم من خلفه عائداً من المسجد حتى لم يتبقَ بينهم سوى خطوات فوثب سعد من مجلسه احتراماً له.

"سعد.. لماذا لم تصلِ معنا في المسجد؟" عاجله والده بسؤاله قبل وصوله إليهما فلم يستطع قول شيء في حينه، تضعضع متفاجئاً برؤية والده ثم بسؤاله المباغت الذي لم يتأخر مثيب عن استغلاله هامساً لسعد: "اكذب الآن على أبي كما كذبت عليّ.. هيّا.. افعلها"

أبوهما كان غاضباً ووجهه يتغضن بغيضه وهو ينظر إلى سعد الذي لم يعر ما قاله مثيب اهتماماً وراح يجيب والده: "فاتتني الصلاة في المسجد يا أبي.. صليت في البيت"

"يا كذاب! للتو قلت لي أنك صليت مع سلمان وعمران في المبولة" قالها مثيب فأجابه سعد محتداً: "سأبول على وجهك إن لم تسكت"

"مبولة!" قالها والدهما متعجباً ثم سألهما ما إن وصل إليهما: "عن أي مبولة تتحدثان؟"

ولكنهما لزما الصمت ولم يجب أحدٌ منهما على سؤاله فأكمل: "اسمع يا سعد.. بعد الصلاة جاءني حيدر وقال لي أنك لم تسدد دينك عنده. الرجل كان يبكي. قال لي أنك وسلمان تضربانه إذا طالبكما بدينه! ألا تخاف الله يا سعد؟! أصبحت أطول مني وما زلت تغتصب حق الضعفاء والغرباء ولا تصلي مع المسلمين في المسجد!"

أرخى سعد عنقه خجلاً من والده وهذا الأخير يكمل: "أراني المسكين صور أبنائه وهو يصيح قائلاً أنهم بحاجة إلى المال، أحرجني أمام أهل الحارة بسبب دينك أنت وأصدقائك البلهاء" ثم سأله: "أتعلم كم يطلب منك؟"

لم ينبس سعد ببنت شفه، حنى رأسه ولم يجب والده الذي قال: "ألف وسبعمائة ريال! كيف وصلت إلى هذا المبلغ يا سعد" ثم مدققاً في وجهه: "هل تدخن؟"

اضطرب سعد من سؤال أبيه ورفع صوته: "أقسم لك أني لا أدخن"

"فكيف وصلت إلى هذا المبلغ؟" ثم مهدداً: "اسمع يا سعد.. لا تنتظر مني سداد دينك، عليك الاعتماد على نفسك هذه المرة، تعمل في الحراج.. تستدين من أحد.. كل هذا لا يهمني.. ما يهمني أن تسدد حيدر في نهاية الشهر.. هل تفهم ما قلته؟"

هزَّ سعد رأسه إيجاباً ممتثلاً لما قاله والده فتوجه هذا الأخير إلى منزله وهو يتأفف بغضب. أراد مثيب قول شيءٍ ما ولكن سعد لوح بقبضته في وجهه فوقف أمامه ينظر إليه بخيبة والكلمات تضطرب على فمه: "لستُ أعلم لماذا تعاملني بهذه الطريقة؟"

أجابه سعد بسؤال متذمر: "بل قل لي أنت يا مثيب" وبعد تأكده من دخول والده منزلهم: "هل تعتقد أن والديّ سيحبانك بهذه الطريقة؟"

نظر إليه مثيب بتعجب دون أن يفهم ما يعنيه: "ماذا تريد من ذلك؟"

"لماذا تفعل هذا؟"

"أنا لا أفعل شيئاً.. صدقني أنا أحبك وأريد لك الخير"

"دعك من كلامك البراق ومثاليتك الكذابة.. أنت تعتقد أنك عندما تكون ملتزماً فسيقارنونك بي وستظهر عيوبي لهم.. أليس كذلك؟"

"هذا غير صحيح"

"تعتقد أنك ستنال رضاهم إذا كنتَ رجلاً متديناً؟"

وقبل أن يجيبه دخلت سيارة بيك آب من نوع تويوتا من أول الشارع فابتسم مثيب لراكبيها حتى توقفت بجانبه وقال الراكب: "السلام عليكم"

أجابهما مثيب واتجه إليهما وسعد يُدير رأسه فيما حوله. كانا صديقا مثيب، أبو قحافة وأبو جليبيب اللذان لا يعرف سعد عنهما سوى كنيتيهما. لم يعرف يوماً أسميهما ولا أين يسكنان. إنهما صديقا مثيب الملتزمين مثله ولكنهما يملكان لحيتين كثتين وليست

كلحية مثيب الشعثاء وذات الشعيرات المعدودة والتي تشبه قضباناً حديدية نافرةً من جدارٍ خرساني. يبدوان أكبر منه سناً، ويخرجان معه بشكلٍ مستمر ويجوب الثلاثة شوارع منفوحة بطريقةٍ غريبة وهم ينظرون إلى البيوت بتدقيقٍ غريب ولكن سعد لم يعرف يوماً ما يجدانه من متعةٍ في هذا الأمر.

كان سعد يُدير رأسه في الحارة ويرى عمران يقترب من سلمان والأبكم ويقف معهما أمام باب هذا الأخير ويشيران إليه ولكنه لم يذهب إليهما. انشد انتباهه لحوار مثيب مع صديقيه ورأى جراباً في المقعد الخلفي يمتد من الباب الأيمن إلى الأيسر ثم سمعَ شيئاً عن غزوةٍ مباركة وجهادٍ في المجتمع ولكنه لم يفهم تماماً ما يحدث حتى ركب معهما مثيب السيارة وخرجوا من الحارة وهم يضحكون.

تركوه وحيداً وهو يتأمل رفاقه في أفق الشارع، استوقفه ما قاله والده. لم يتوقع أن يفعل حيدر هذا، أن يشتكي إلى أبيه! وأين؟! في المسجد! أمام الجيران كلهم! يا إلهي! إنه مأزق لم يكن في حسبانه ولن يمرَّ بسلام ما لم يسدد حيدر خلال المهلة التي حددها والده.

نظر إلى الشارع وهو يفكر، لن يستطيع تسديده حتى لو عمل لشهرٍ كامل في الحراج. ثم ما الذي يمكن أن يعمله في الحراج؟!

لا بد أن يسرق أحداً كي يستطيع ذلك! فكر بسلمان الذي يشاركه الدين ولا بد أن يشاركه السداد. ولكنه يعرف سلمان، إنه مفلس مثله ولا يتوقف عند الحديث عن المال من ترديد أمثاله الدالة على إفلاسه. تبادر إلى ذهنه عمران رغم أنه لا يستدين من حيدر مثلهما ولا دخل له فيما يأخذانه منه. وضع أسرته المادي جيد وهم دائماً ينفقون على ابنهم بسخاء وأبوه يهبه مصروفاً أسبوعياً جيداً ويمنعه من الاستدانة من حيدر. ولكنه مهما حاول مع هذا الكلب فلن يستطيع إقناعه ليدفع ولو جزء بسيط من الأموال التي يطالبهم بها حيدر.

أخرج زفيراً حاراً ووقف على قدميه وأغلق باب حوض البيك آب الخلفي واتجه إليهم لا يلوي على شيء حتى وصلهم فوجدهم منهمكين في أمر جاد هذه المرة.

"ماذا تفعلون؟" قالها سعد وهو يتقدم باتجاههم.

نظر الثلاثة إلى سعد وهم يتحلقون حول علبة الهاتف المفتوحة في جدار بيت الأبكم وهذا الأخير يحك رأسه بما يوحي أنه يفكر.

قال سلمان: "هذا المسكين، هاتفهم لا يعمل ولا يعرف سبب المشكلة"

اقترب سعد منهم وألقى نظرةً على العلبة فإذا بسلكين يخرجان منها.

"ربما لم يسدد الفاتورة" قالها سعد وهو يتحسس أسلاك العلبة ويتأكد منها فأجابه الأبكم رافعاً يديه بأن هذا لم يحدث، وبرطع بعدها بكلماتٍ ترجمها سلمان رغم أنهم فهموها دون الحاجة إليه.

سلمان: "لقد تأكد من ذلك. أخوه الصغير اتصل بشركة الاتصالات من دكان حيدر فأخبروه أن لا مشكلة لديهم في اشتراكه أو في مقسمه، ولكن المشكلة في التمديدات الداخلية"

قال سعد: "إذاً ربما تكون المشكلة في داخل المنزل!"

كان الأبكم يشير بيديه وسلمان يتحدث ليؤكد لسعد: "لا.. قال إنه تأكد منها في داخل المنزل، لكنه يعتقد أن المشكلة هنا"

"وهل كان الهاتف يعمل منذ نزولهم في البيت؟"

أجاب الأبكم بهزِ رأسه إيجاباً رغم أن سعد لم يوجه السؤال إليه فحدّق هذا الأخير في العلبة وسرعان ما فهم ما يحدث وهو يمسك أحد السلكين: "أعتقد أنه على حق" ثم سأله: "أليس هذا سلككم؟" أشار للأبكم ممسكاً به فأجابه هذا الأخير بيديه نافياً.

"هذا سلككم إذاً؟" سأله سعد وهو يمسك بالسلك المفصول فأجابه موافقاً.

"لمن هذا السلك يا ترى؟" ألقى سؤاله على نفسه والأبكم يرفع كفيّه مفيداً أنه لا يعرف. ثم بلا انتظار، رفع سعد طرف ثوبه وعقده على خصره وتعلق بالحائط حتى تسلقه وراح يتتبع السلك

المتصل بالعلبة والممدد على الجدار نحو الدور الأرضي الذي يسكن فيه أبو جابر ففهم ما يحدث.

"السلك يمتد إلى بيت أبي جابر" قالها سعد من فوق الحائط وهو ينظر إلى الأبكم فلزم هذا الأخير الصمت دون أن يفهم ما يعنيه سعد.

"الكلب!" قالها سلمان ثم أشار بحديثه إلى الأبكم: "هذا الحقير، إنه يسرق هاتفكم وأنتم تدفعون الفاتورة!"

وعندما فهموا جميعاً ما يحدث، نظر عمران إلى الأبكم: "اسمع أيها الأطرم، أنت لا تعرف أبا جابر.. إنه رجل نذل، يتذاكى على الناس ويعتقد أنهم أغبياء وهو أغبى رجل في الوجود" ثم وجه كلامه إلى سعد: "انزل يا سعد.. سنطرق عليه الباب"

ولكن سعد أشار بحلٍ آخر: "لا.. لا تفعل يا عمران" ثم أنزل قدميه عن الحائط متدلياً بيديه وأكمل بعد هبوطه على الأرض: "لا تطرق الباب.. سنلقنه درساً كي لا يتجرأ على أذية أحد مرةً أخرى" نظر بعدها إلى الأبكم ووجه الحديث إليه: "يجب عليك إبلاغ الشرطة" قالها سعد بعينين ساهمتين محاولاً أن يكون دقيقاً، وعندما لم يتأكد أنه فهمه، قال له وسط تعجب صديقيه: "هذا الرجل لن يتركك في حالك، الذين كانوا يسكنون قبلكم في هذا البيت هربوا من أذاه. إنه رجل نذل، خسيس، يحب المشاكل ولا يتورع عن إلقاء

نفسه بها، ويجب أن تكون حازماً معه منذ البداية. أبلغ الشرطة وسنشهد معك، يجب ترك الأدلة كما هي"

صفّق سلمان بيده وقفز في مكانه سعيداً بما سمعه. لم تكن الخطة المحبوكة ما دفعه للفرح فحسب، ولكنه شعر بنجاحه في توطيد العلاقة بين سعد والأبكم.

"نعم، كلام سعد صحيح" مشيراً سلمان بكلامه إلى الأبكم: "هذا الرجل لن يتركك في حالك ما لم تردعه من البداية"

كان الثلاثة ينظرون إلى الأبكم منتظرين موافقته على خطتهم وهو ينظر إليهم ويهرش رأسه، فهو لا يعرف أبا جابر، ولا يريد المجازفة بعداءٍ مبكر مع جيرانه، ولكن الثلاثة الذين يريد مصادقتهم يحثونه على ذلك فلم يسعفه عقله بقرارٍ يتخذه حتى جاء كلام سعد لسلمان: "اذهب معه يا سلمان إلى دكان حيدر وأبلغا الشرطة"

لم يتأخر سلمان، امتثل لما قاله سعد وذهب بصحبة الأبكم إلى دكان حيدر بينما توجه سعد وعمران إلى البراحة وجلسا فيها منتظرين عودتهما.

كانت الشمس تصلي الأرض ورائحة البول تنتشر في المكان، جلسا في مكانهما المعتاد منتظرين قبل أن يتذكر سعد الفتاة التي خرجت من بيت عمران فراح يتبسط في الحديث معه على غير

عادته ويحاول الدخول إلى عائلته ليعرف شيئاً عنها فبدأ حديثه هكذا: "رأيت والدك يخرج غاضباً من بيتكم بعد الصلاة!"

"نعم" قالها ولم يزد عليها فسأله سعد: "ما الذي حدث؟ لماذا كان غاضباً؟"

"الدش تعطل مجدداً"

"وما الذي يغضبه في الأمر؟ ليستحم في حمامٍ آخر!"

"ليس دش الحمام! دش السطح!"

"ماذا؟! هل لديكم دش؟"

"نعم، قام أبي بتركيبه منذ شهر ولكنه لم يهنأ به"

"لماذا؟"

"يتعرض دائماً للتعطل ولا نعرف السبب"

وبعد أن فكر سعد فيما سمعه: "ألا يخشى أن ينعت بالديوث" وبعد أن نظر إليه عمران متعجباً: "لا تؤاخذني ولكنهم ينعتون بها من يضع الدش في بيته"

"أبي لا يهتم بالمطاوعة ولا بكلامهم" ثم مكملاً: "إنه يشك أساساً أن أحدَ الجيران يستهدف الدش ليعطله، وقد أقسم أنه لو عرفه لجلده حتى يعود إلى رشده ويعاف الالتزام"

لم يصل سعد إلى مبتغاه فحاول مرة أخرى الاقتراب من الموضوع الذي يريده: "نعم.. لو سقط هذا المعتوه في يد والدك لأعاد تربيته من جديد.. والدك رجل متهور"

"لا تقل ذلك عنه!"

"وهل أقاربكم يعرفون أن لديكم دش"

"نعم.. أبي أخبرهم بلا اهتمام.. ومنهم من قاطع منزلنا ومنهم من لم يعر الأمر أهميةً وما زال يزورنا"

شعر أنه يقترب وهو يسأله: "وهل لكم أقرباء يزورونكم باستمرار؟"

كان السؤال غريباً، ولو أن أحداً عاقلاً ألقي عليه لفكر لدقيقة قبل الإجابة ولكن عمران ليس له عقل حتى يشعر بغرابة السؤال.

"بالتأكيد، نحن من قبيلة عريقة يا سعد، وأبي رجل محترم يعرفه الكثير من الناس"

"ما شاء الله" قالها لينفخ كبرياء عمران قبل أن يكمل: "ولكنك لم تجبني، من هم الذين يزورونكم؟"

"أقرباؤنا! لدينا الكثير منهم"

"ومنهم أقرباؤكم هؤلاء؟"

"كثيرون.. هناك أعمامي وأخوالي وهناك أبناء عمومة أبي وهم يزوروننا كثيراً.. أتعلم أن ابن عم والدي وكيل وزارة؟" قالها بابتسامة تملأ وجهه الدائري وهو يهزّه عمودياً.

ورغم أن سعد لم يكن يريد أن يكون واضحاً، إلا إن عمران دفعه إلى ذلك: "حسناً.. من آخر من زاركم في الأيام الماضية؟"

"لا أعرف بصراحة.. أنا لا أبقى في البيت كثيراً.. أنت تعرف! أنا أجلس معكم هنا أكثر من جلوسي في البيت!"

"يا ابن الكلب!" أراد قولها ولكنه كتم غيضه قبل التفوه بها. شعر أن عمران يعبث به وهو لم يعرف الطريقة المناسبة ليصل إلى ما يريده. وقبل المحاولة مع سؤالٍ آخر ظهر سلمان والأبكم من بين السيارات فقال لهما عمران قبل أن يصلا إليهما: "ماذا فعلتم؟"

لم يجبه سلمان حتى جلسا معهما: "فعلنا كما اتفقنا.. هاتفت الشرطة وأبلغتهم بما حدث وبموقع البيت وأتينا"

"ماذا قالوا لك؟" سأله سعد فأجابه سلمان:

"سيأتون بعد قليل"

"هذا جيد.. سيقع أبو جابر في شر أعماله هذه المرة" شارك عمران.

لم يكن الوضع جيداً بالنسبة لسعد، كان يتمنى تأخر سلمان والأبكم في مهمتهما حتى يستطيع استخلاص معلومة مفيدة من رأس هذا الأبله ولكن ذلك لم يتهيأ له. فكر في مناورته مرةً أخرى ولكنه خشي من سلمان، كما أنه خشي من بلاهة عمران التي قد تُفقده أعصابه عندما يعود به إلى متاهة أحاديثٍ تافهة يتباهى فيها بعائلته فأراد الخوض في موضوعٍ آخر.

"هل ذهبت إلى ملعب كلاوي؟"

قالها وهو ينظر إلى عمران فأجابه هذا الأخير: "لا.. ما دمت لن تقبل التحدي فلن أذهب إلى هناك.. سيسخر مني لأنك لم تقبل التحدي" ثم متسائلاً بأريحية بعد شعوره بودٍ غريب يتلقاه من سعد: "لستُ أعلم لماذا لا تقبل تحديه! إنها مهمة سهلة"

"قلت ما لدي.. لن أتسبب لنفسي بفضيحة.. لو خسرنا المباراة فسينتشر خبرها كالنار في الهشيم وتصبح حادثة يؤرخ بها أهالي منفوحة كبارتي عطاالله"

"لديه فتيات يتابعن مرانه يا أحمق" قالها سلمان لسعد بنظرةٍ توحي إلى ما يعنيه فاندفع الشك بداخل هذا الأخير وسأله: "ماذا تعني؟"

مسح سلمان على ساقيه وتحرك في مكانه على الحجر: "لا شيء.. لا شيء" وانجذب إلى الأبكم الذي كان يشده من كم ثوبه.

كان يستمع للحديث عن كلاوي وعن المباراة منذ الأمس ولكنه لم يفهم جيداً فأراد الاستفسار من سلمان. سأله عن كلاوي وعن حارته وعن موقع ملعبهم وسلمان يجيبه عما يسأله، ثم أشار هذا الأخير بسبابته على رقبته بما يعني أن سعد وكلاوي في خصومة أزلية مما دفع الأبكم إلى الصمت احتراماً لسعد. أما بارتي عطاالله فهو سابقة تاريخية في منفوحة وحدث مشهود عرفه جميع سكانها وظلوا يؤرخون به لما يحدث في حياتهم لسنين فيقولوا لبعضهم: "هذا حدث في سنة بارتي عطاالله"، "هذا بعد بارتي عطاالله بأيام". ومختصر القصة أن عطاالله هذا لص متسكع قام بعد سماعه بسفر أحد الأعيان شديدي الثراء إلى خارج البلد، بالقفز إلى قصره لسرقته ولكنه وجده محكماً فدخل أحد المستودعات الخلفية وعثر فيها على شيءٍ لم يكن بالحسبان. وجد شاحنة صغيرة مثقلة بصناديقِ من الخمور. خمور مستوردة من كل الأنواع الفرنسية والإنجليزية والروسية والإسبانية والإيطالية. نبيذ، جعة، ويسكي، وأنواع أخرى لا يعرفها. ولأنه لم يستطع سرقة شيءٍ من القصر، ورغم أنه لا يشرب الخمر الذي يعتبره أم الكبائر، قام عطاالله بسرقة تلك الشاحنة والخروج بها من القصر والعودة إلى منفوحة وأوقفها في حارتهم القريبة من شارع عشرين. ثم افتتح الحفلة وقام بتوزيع القناني على كل من يمرُّ به حتى سكر أهل منفوحة كلهم على مدى أسبوعٍ

كامل مجاناً بمشروباتٍ لم يعرفوها في حياتهم، كانت ليالي استثنائية يتذكرها أهالي منفوحة حتى اليوم ويؤرخون بها.

"جاءت الشرطة" قالها عمران فرفعوا رؤوسهم وشاهدوا سيارتها تقف أمام بيت الأبكم وهرعوا متجهين إليها. ترجل شرطي وحيد من السيارة وهم يقتربون منه، أمسك بحزامه الغليظ ورفعه إلى أعلى بطنه ثم أدار جسده فرآهم يتقدمون نحوه.

"هل أنتم أصحاب البلاغ؟" قالها الشرطي فتداخلات كلماتهم:

"نعم" قالوها معاً لفظاً أو إيماءً وأضاف سلمان: "أنا من اتصلت" ثم أشاروا جميعاً إلى الأبكم الذي رفع يده عالياً: "هذا صاحب البلاغ"

توجه الشرطي باهتمامه إلى هذا الأخير: "أخبرني إذاً.. ماذا حدث؟"

ارتبك الأبكم عندها من وقوفه أمام شرطي وانطلق ببرطعاته في وجهه. يشير إلى علبة الهاتف، ثم إلى بيتهم، ثم يقترب من العلبة ويمسك بأحد السلكين ثم يتركه ليمسك بالآخر، ثم يشير إلى بيت أبي جابر بغضب ويرفع يديه بين هذي وتلك متعجباً أو متسائلاً أو مستنكراً.

استوقفه الشرطي متسائلاً: "لحظة.. لحظة" ثم نظر إلى الباقين: "ماذا يقول هذا؟"

أجابه سعد: "إنه أطرم"

"أطرم!" ودون أن يخفي الشرطي تعجبه: "كيف قدم البلاغ إذاً في الهاتف؟"

"قلت لك أنا من قدم البلاغ!" أجابه سلمان ثم وهو يستجمع كلامه: "اسمع.. سأشرح لك"

هزَّ الأبكم رأسه موافقاً على ما قاله سلمان ولكن الشرطي استوقفه قبل شروعه في الحديث: "مهلاً.. هل تفهم ما يقول؟"

"بالتأكيد" أجابه سلمان.

"هل تستطيع أن تُفهمه ما أسأل عنه؟"

أجابه بنفس الكلمة مجدداً وبثقة: "بالتأكيد"

وليوضح الشرطي لسلمان: "يجب أن تكون حذراً.. فما ستقوله هو إفادة رسمية وستُقيّدُ في المحضر.. عليك معرفة ذلك"

لم يهتم سلمان بما قاله الشرطي: "أنا أفهم ما يقوله ويمكنني ترجمته لك"

نظر الشرطي إلى سلمان بتعجب يداخله الإعجاب، ورغم غرابة الموقف، إلا أنه لم يجد بداً من التسليم بالأمر والشروع في أخذ أقوال الأبكم من فم سلمان، كما أن سلمان لم يمهله فاتجه إلى العلبة وأبعد الغطاء من عليها: "هذه علبة الهاتف، وهذا الأطرم سكن حديثاً في حارتنا.. في الطابق العلوي من هذا البيت"

الأبكم كان يطارد سلمان ببرطعاته ويمد يديه مشيراً إلى العلبة أو إلى الدور الأعلى أو يهزُّ رأسه موافقاً على ما يقوله سلمان وهذا الأخير يكمل: "واليوم أراد استخدام الهاتف ولكن الخط لم يعمل، فاتصل بشركة الاتصالات" ثم مستدركاً ومتوخياً الدقة: "آسف، اتصل أخوه الصغير بشركة الاتصالات فأخبروه أن المشكلة ليست لديهم وأنها في التمديدات الداخلية. وبعد تأكده من سلامة التمديدات داخل منزلهم، جاء إلى هنا فوجد سلك هاتفه مفصولاً من العلبة وفي مكانه سلك آخر، فقمنا بتتبع السلك الآخر فوجدناه يذهب إلى بيت أبي جابر الذي يسكن في الطابق الأرضي"

كان الشرطي يستمع ويحك ذقنه ليفهم والأبكم يهزُّ رأسه بالإيجاب على كل ما يقوله سلمان.

"وهل هو متأكد أن الهاتف كان يعمل؟" سأل الشرطي ثم وضح ما يريد قوله: "أعني هل سبق له استخدام الهاتف منذ نزولهم في البيت ما داموا قد سكنوا مؤخراً؟"

باشر سلمان الإجابة مع برطعات الأبكم بجانبه دون انتظار ما يقوله: "نعم يا سيدي، يقول إنه استخدم الهاتف بالأمس" ثم هزَّ الأبكم رأسه مع برطعاته موافقاً على كلام سلمان، وختم حركاته بأن حرك يده اليمنى على كتفه إلى الخلف، مما كان واضحاً أنه يعني الأمس.

عمران قال من بينهم: "كل هذه المشاكل من أبي جابر، إنه سبب مصائب الحارة. إنها ليست المرة الأولى يا حضرة الضابط، إنه يفتعل دائماً المشاكل بين الناس ولم يسلم منه أحد"

الشرطي نظر إلى عمران ليتأكد أنه لا يسخر منه بمناداته بضابط وهو ليس سوى وكيل رقيب. ولكن الجهل اتضح في كلامه المسترسل ووجهه الناضح بالبلاهة وجسده المتكور كبطة فصرف النظر عنه.

ثم توجه عمران إلى بيت أبي جابر ليقرع بابه وهو يكمل: "لا بد أن تقبضوا عليه حتى يلقى جزاءه"

أضاف سلمان: "إنه رجل قذر، يستغل ضعف هذا المسكين ليسدد عنه الفواتير"

كلهم شاركوا في الحديث مع الشرطي عدا سعد الذي تلبسه الارتباك ما إن رأى الفتاة التي وشمته على وجهه بالعبوات المعدنية تخرج من بيت عمران وتتقدم إلى أول الشارع، عرفها ما إن وقعت عينه عليها فراح يبحث عن مخبأ من حوله وانزوى بتمهل دون أن يتنبه له أحد بين سيارة الشرطة ومنزل الأبكم. ظلَّ يتابع الفتاة حتى مرت بمحاذاتهم وكاد كل شيءٍ أن يمرَّبسلام حتى رآها عمران وصرخ فيها قبل أن تتجاوزهم: "قفي"

ثم اتجه إليها وهو يرفع صوته: "من أين وإلى أين إن شاء الله؟" وراح يتحدث إليها باحتدام والجميع يطالعه باهتمام. أما الشرطي فذهب للتأكد من روايتهم وتفقد الأسلاك والعلبة، ثم طلب من الأبكم أن يخلي بيته حتى يشاهد السلك من الداخل. أراد أن يقفز على الجدار ولكن أبو جابر خرج من بيته في هذه الأثناء فاتجه إليه، لم يتجه إليه وحيداً بل كلهم من خلفه، حتى عمران أجبر الفتاة على العودة إلى بيتهم وعاد إليهم ما إن سمعَ باب أبي جابر يُفتح.

"هل أنت أبو جابر؟" سأله الشرطي والرجل ينظر إليه متعجباً ومن خلفه أبنائه الصغار يمدون رؤوسهم من تحت يده أو من جانبه ليروا ما يحدث.

"نعم.. كيف أستطيع خدمتك يا سيدي" جال ببصره فيما يحدث عند بابه وهو يجيبه.

"أعطني بطاقتك المدنية"

"إنها بالداخل"

"أحضرها إذاً وتعال إلى هنا"

كان صوت الشرطي صارماً مما سبب الارتباك لأبي جابر الذي عاد إلى داره وأغلق الباب خلفه. عرف بمصيبته وانكشاف أمره ما إن رآهم يتجمعون مع الأبكم وعلبة الهاتف مفتوحة على الحائط. لم يتوقع أن تعود عليه سرقة خط الهاتف بشكايةٍ للشرطة،

فكل ما كان يتوقعه عندما ينكشف أمره، أنه سيعتذر لشابٍ صغير لا يحسن الكلام ليخبر أحداً وسيعيد خطه وينتهي الأمر. وإذا ما أتيحت له الفرصة مستقبلاً، فسيقوم بسرقته مرةً أخرى.

"لماذا لم تقبض عليه؟" سأل سلمان الشرطي والأبكم كعادته يقف بجانبه وينظر إلى الشرطي ويوافق على ما يقوله سلمان.

"لا عليك، فهذه إجراءات لا بد منها ويجب أولاً التأكد من هويته ونظامية وضعه"

"ولكنه قد يهرب" عاجله سلمان محتداً.

قال الشرطي وهو يصرف نظره عنه: "إلى أين؟ نحن نحاصر بيته" ثم محاولاً إعطاء الموضوع حجمه الطبيعي بلا مبالغات: "كما أن الموضوع لا يتجاوز خط هاتف ولا يمكنه الهروب به ونستطيع إعادته إلى الأبكم وينتهي الأمر"

لم يعجب سلمان ما قاله الشرطي ولكنه لم يجد شيئاً يقوله. تنبه إلى كلمة محاصرة التي تلفظ بها واستعد في مكانه متربصاً بما حوله وهو يراقب المنزل.

أما سعد فاقترب من عمران وسأله: "من هذه التي كنتَ تتحدث إليها؟"

"إنها خادمتنا"

"ماذا؟" شعر سعد بالعبوات المعدنية ترتطم بوجهه مرةً أخرى مع إجابة عمران، بل إن ارتطامها هذه المرة كان أشد قسوة. يا إلهي! كان يغازل خادمة! يا لسوء حظه وغبائه الذي دفعه لمغازلة خادمة والتودد إليها وتلقى ضربةً منها هشمت وجهه.

قال سلمان: "ماذا قلت يا عمران؟ من هي؟"

أجابه بلا اهتمام: "خادمتنا"

فنظر سلمان إلى سعد وهو يكتم ضحكته مما أثار ريبة سعد مرةً أخرى وسأله: "ما بك؟ لماذا تضحك بهذه الطريقة"

"لا شيء"

وقف سعد أمام سلمان المتكئ على مقدمة سيارة الشرطة وراح يسأله باستمهال: "بل هناك شيء، منذ كنا في البراحة وأنت تضحك بطريقةٍ غريبة"

سلمان لم يجبه، بل نظر إلى عمران وسأله: "ومنذ متى وأنتم لديكم خادمة يا أبناء الذوات؟" كانت السخرية تنضح من سؤاله.

"منذ أسبوع أحضرها أبي" ثم متباهياً: "أنتم تظنون أننا فقراء مثلكم لأننا نسكن معكم في هذه الحارة القذرة، لا يا سلمان، نحن نسكن هنا تواضعاً"

"قل قسم؟!" سأله سلمان هازئاً.

خرج أبو جابر عندها من منزله مرتدياً ثوبه وهو يمد يده نحو الشرطي بهويته الذي ما إن أمسك بها ونظر فيها حتى سأله: "ألديك هاتف؟"

"بالطبع ليس لديه هاتف" تدخلَ سعد ثم جاء صوت سلمان وهو يقف بجانبه: "لو كان لديه هاتف لما سرق هاتف الأطرم"

"ماذا؟" فتح أبو جابر عينيه متراجعاً بوجهه إلى الخلف والشرطي ينظر إلى سعد وسلمان بغضب: "لا تتدخلا في عملي" ثم أدار وجهه إلى أبي جابر: "هيّا أجب على السؤال"

"نعم، لدي هاتف، وقامت شركة الاتصالات بتركيبه اليوم فقط"

"هل هذا هو السلك الذي تم إيصاله إلى بيتك اليوم؟" كان الشرطي يمسك بالسلك الجديد الممتد إلى بيت أبي جابر.

"نعم.. بالضبط"

"حسناً.. جارك يقول أن هذا الخط له، وأنك قمت بسرقته" ثم نظر إليه محققاً.

"أنا؟! أسرق هاتف جاري؟ مستحيل يا حضرة الشرطي!"

"قل لي إذاً.. هل لديك ما يثبت أن هذا الهاتف لك؟"

"ماذا تعني؟"

"ما دامت شركة الاتصالات قد ركبت هاتفك اليوم فبلا شك أن لديك قسيمة الاشتراك المدون فيها اسمك ورقم هاتفك"

نظر أبو جابر إلى الأرض متفكراً ثم أعاد نظره إلى الشرطي وهو يحاول ادعاء البلاهة. حك رأسه ليوحي أنه لا يعرف ما يعنيه: "الحقيقة أنني لا أملك هذه الورقة، ولكني تقدمت بطلبي إلى الشركة قبل ثلاثة أشهر ولستُ متأكداً من مكان الورقة، واليوم اتصلت بهم وقالوا لي إن الخط تم تركيبه ويجب عليّ تمديده من العلبة فقمت بذلك"

"وهل كان الخط موصولاً بسلك جارك؟"

"نعم.. لقد رأيته ولكني ظننت أنه فعل ذلك بالخطأ"

نظر الشرطي عندها إلى الأبكم، ثم بحث عن المترجم فأشار إليه: "أنت.. تعال هنا.. أخبر صديقك أن يحضر لي قسيمة اشتراكه"

فنظر سلمان إلى الأبكم وقال تماماً ما قاله الشرطي: "الشرطي يطلب منك إحضار قسيمة شركة الاتصالات، هل هي معك؟"

هزَّ الأبكم رأسه إيجاباً وهرول إلى بيتهم في التَوّ والشرطي ينظر بتعجب إلى سلمان ويقول له: "ما هذا؟"

نظر إليه سلمان متسائلاً: "ماذا؟"

قال الشرطي: "أنت لم تفعل سوى أن سألته نفس سؤالي!"

أجابه سلمان: "نعم هذا ما فعلته لأنك طلبت مني ذلك"

الشرطي: "ولكنك لم تترجم ما قلته بلغة الإشارة!"

سلمان متعجباً: "نعم.. هذا ما حدث بالفعل"

قال الشرطي وهو يستجدي حلمه: "ألم تقل إنك تعرف لغة الصم والبكم؟"

أجاب سلمان بتعجب: "ماذا؟! أنا أعرف لغة الصم والبكم؟!" ثم وهو يحك رأسه: "لا أعتقد أني قلت ذلك، ولكني قلت إنه يفهم ما أقوله، فهو ليس أصم وإنما أطرم فقط"

"ليس أصم؟!" قالها الشرطي بغيض، استولى عليه شعور سيء أن هؤلاء الأوباش الذين احترمهم في البداية يسخرون منه أو يستغفلونه أو أنه بالفعل لم يفهم ما قيل له أولاً وهذا يعود على هيبته ومظهره في تمثيل القانون. عمران يناديه بالضابط، وهذا يدعي شيئاً ثم يتراجع عنه، ويتدخلون في تحقيقه مع أبي جابر، كل هذا جعله يعيد حساباته عنهم وهو ينظر بتحقق لسلمان وهذا الأخير يتصنع البراءة ويشعر بأنه تورط في شيء لم يعرف حقيقته.

عاد الأبكم مهرولاً كما ذهب وأعطى الشرطي قسيمة الهاتف فراح هذا الأخير ينظر إليها ويطابق معلوماتها مع هويته. وبعد أن تأكد من ذلك: "وأنت" مشيراً إلى أبي جابر: "ألا تملك قسيمة ولا أي شيء يثبت أن لديك هاتف؟"

"لا يا سيدي"

تدخلَ سلمان عندها: "أبو جابر، يا أبا جابر.. أنت رجل كبير في السن، لا يليق بك الكذب.. أنت تعرف أنك سرقت خط الأطرم فلا تحاول المراوغة. وسيطلب الشرطي الآن من الأدلة الجنائية الحضور ورفع البصمات الموجودة على العلبة وستتضح الحقيقة فلا تحاول الإنكار"

لن يحدث هذا أبداً، فعلاوةً على رغبة الشرطة الدائمة في حل أي مشكلةٍ بشكلٍ ودي لينتهوا منها بأسرع وقت وأقل مجهود، فلا يمكن رفع البصمات عن علبة الهاتف، فالبصمات لا تُرفع إلا عن الأجسام الصقيلة، وحتى لو كانت العلبة جسماً صقيلاً وهي ليست كذلك، فإن أيديهم المتسخة بالتراب والبول سبق لها أن عبثت بكل البصمات التي عليها، كما أن أبا جابر اعترف بفعلته ونسبها إلى توهمه أن الخط يخصه. ولكن ما الذي دفع سلمان إلى قول ذلك؟ بالتأكيد غباؤه! إنه يقول ذلك محاولاً الضغط على أبي جابر والتضييق عليه ليعترف، فجاء صوت هذا الأخير متلعثماً: "ولكن اسمعني يا حضرة الشرطي.. اسمعني أرجوك" وعندما أعطاه الشرطي كامل اهتمامه: "الرجل لم يمض على سكنه في المنزل سوى أسبوعين.. وأنا تقدمت بطلبي للشركة منذ ثلاثة أشهر! فكيف يصلون خطه قبل خطي؟" ثم منهياً كلامه: "هل هذا منطقي؟"

أجابه الشرطي: "المنطقي هي الأوراق الرسمية.. والرجل لديه أوراقه الرسمية وأنت لا تملكها"

"فأين خطي إذاً؟"

"هذا ما ستجيبك عليه شركة الهاتف وليس الشرطة!"

حاولوا عندها تأليب الشرطي عليه.

سلمان: "إنه يكذب ويعرف إنه يكذب يا حضرة الشرطي"

عمران: "لا بد أن ينال جزاءه"

أبو جابر: "يا حضرة الشرطي أنا هاتفتهم اليوم وقالوا لي أن هاتفي يعمل"

سعد: "ها هو يعيد كذبته من جديد.. إن كان هاتفهم من دكان حيدر فسنطلب يا حضرة الشرطي من حيدر الحضور ونسأله إذا كان قد استخدم هاتف دكانه اليوم أم لا"

أبو جابر: "اتصلت بهم من هاتفٍ عمومي"

عمران: "إنه يكذب يا حضرة الضابط.. ألق القبض عليه"

أبو جابر: "يا جماعة أعتقد أن الأمر فيه لبس" قالها ليعيد ترتيب الحوار معهم: "إنه لا يتعدى أني ظننت هذا الهاتف هاتفي فقمت بإيصاله إلى بيتي" ثم بعد أن ضحك ليهدئ الأنفس: "وهو لا يستحق اتهامي بالسرقة وسأعيد الخط إلى جارنا العزيز بكل حب ورضى"

قفز سعد من الخلف: "آهاااا.. بهذه السهولة! بعد انكشاف لعبتك!"

عمران: "تريد منا تصديق هذا؟ أتعني أنك لم تكن تعرف أنه هاتف المسكين؟"

قال أبو جابر: "إنها الحقيقة.. فأنا لم أكن أعرف"

سلمان: "أحضر لنا ورقة تقديمك على الهاتف" ثم بعد أن نظر إلى الشرطي: "إنه يكذب يا سيدي.. إنه يريد تحويل فعلته إلى خطأ غير مقصود كي يتنصل من فعلته، دعه يحضر لنا ورقة تقديمه على شركة الاتصالات، أنا أتحداه إذا كان قد تقدم بطلب اشتراك"

أبو جابر: "لست أعلم أين الورقة الآن، ولكنها موجودة بالتأكيد"

سعد: "وما الذي يثبت لنا وجودها؟"

أبو جابر: "أنا مستعد أن أحلف لكم"

سلمان: "قالوا للحرامي احلف قال جاءك الفرج"

عمران: "إذا كنتَ بريئاً كما تدعي، فيجب على الأقل أن تدفع فاتورة الأطرم لتظهر حسن نيتك"

نظر أبو جابر إليهم بلا اهتمام ثم أهملهم، يعلم تمام المعرفة ما يحاولون توريطه فيه فحاول ألا يجيبهم لئلا ينجرف في ملاسنة معهم أمام الشرطي الذي تدخلَ لينهي الجدل: "حسناً.. حسناً.. ستفصل هاتفك يا أبا جابر"

أجابه برحابة صدر: "الآن أفعل ذلك" وذهب إلى علبة الهاتف وانتزع السلك منها قائلاً: "هاه.. انتهينا"

أكمل الشرطي: "ويجب عليك التعهد بعدم العودة لذلك مرةً أخرى"

أبو جابر: "أنا أقسم لك ولستُ أتعهد فقط"

قلّب الشرطي بصره في الشارع ورفع حزامه إلى الأعلى وسلمان وسعد وعمران يخافون مما يريد قوله.

"سننهي المشكلة هذه المرة بشكلٍ وديّ"

جاءت جملته كفاجعة لهم فتعالى صراخهم معاً: "ماذا؟!"

ثم قال سلمان: "يجب أن تقبض عليه"

سعد: "لا بد أن يكتب تعهداً خطياً في مركز الشرطة"

الشرطي بهدوء: "لا حاجة لذلك.. الأمر انتهى هنا"

ثار اللغط بينهم، الأبكم هو الآخر شارك ببرطعاته دون أن يعرف أحد ما يعنيه، كل واحد من الثلاثة كان منهمكاً فيما يقوله غير عابئ بقول الآخر. شعورهم أن أبا جابر سيفلت من خطتهم المحكمة جعلهم يفقدون أعصابهم ودفعهم لرفع أصواتهم:

سلمان محتداً: "لا يمكن أن ينتهي الأمر هكذا!"

عمران للشرطي: "يجب أن يدفع الفاتورة على الأقل"

سعد وهو يقترب من أبي جابر بغضب: "يا حقير.. هل تظن أنك ستفلت بفعلتك؟" ولحق به سلمان: "تستغل الضعفاء يا عديم الضمير" ثم عمران مندفعاً من خلفهما: "والله أن تدفع الفاتورة أمامنا الآن.. ونقداً"

تجهم أبو جابر في وجوه الثلاثة وقال ببرود: "وإذا لم أدفع؟ ما الذي ستفعلونه؟"

لم يكد يتم جملته حتى قُلب رأساً على عقب، تظاهروا عليه وحمله سلمان عالياً ثم هوى به على الأرض وانهالوا عليه ضرباً. أم جابر كانت تقف خلف الباب وهي تولول وتصيح ثم أطلقت أبناءها نحوهم فتعلقوا بأرجل وأيدي وظهور الثلاثة وهم يعضونهم أو يلكمونهم وصراخهم يتعالى في الحارة.

الشرطي الذي همَّ بالمغادرة متجهاً إلى سيارته عاد أدراجه مسرعاً إلى موقع العراك محاولاً تخليص أبي جابر من أيديهم: "توقفوا.. ماذا تفعلون؟.. توقفوا"

تكوّم الثلاثة على أبي جابر وهو يتقوقع على نفسه محاولاً حماية وجهه ورأسه من ضرباتهم. ما إن يخلّص الشرطي أحدهم حتى يتورط في صبي من أبناء أبي جابر يتعلق في أحد الثلاثة والأبكم ينظر إليهم ولا يعرف ما يجب عليه فعله.

وبعد أن استطاع الشرطي السيطرة على الموقف وفك الاشتباك، أبعدهم باتجاه سيارته وهم يشتمون أبا جابر ويبصقون عليه:

"لعنك الله أيها القذر"

"أقسم لك أن أربيك كي لا تتطاول على المساكين"

"تفوووو"

وقف أبو جابر على قدميه حافياً وثوبه عُرك بالأسفلت. التقط الشرطي أنفاسه لوهلة قبل أن يستدير إليهم ويمسك بسعد أولاً ويدفعه نحو السيارة ويفتح بابها الخلفي ويحشره بداخلها، ثم عاد إلى سلمان وألحقه بصاحبه، ثم انتهي بعمران وأغلق الباب صارخاً بهم: "هل أنتم مجانين؟ تعتدون على الرجل أمام شرطي!" ثم دون أن يخفض صوته: "وتريدون أن آخذه إلى المركز؟ حسناً.. سأريكم الآن من سيذهب إلى المركز"

ركب سيارته بغضب وأطلق صوت إنذارها المفجع واستدار من آخر الشارع متجهاً إلى مركز الشرطة. أبو جابر رغم كل ما ناله من أذى كان يبتسم وهم يمرون بجانبه، الأبكم كان ينظر إليهم يختفون في آخر الشارع بتعجب، وما إن مرت السيارة بجانب منزل سعد، حتى رآهم مثيب الذي خرج للتو منه. رأى سعد من على باب بيتهم ينظر إليه بخوف، ولم تكد تختفي السيارة في المنعطف حتى دخل مثيب بيتهم راكضاً.

وقفة:

لا تندفع حتى لو كنتَ على حق، فقد تصبح جانياً في نظر الناس بعد أن كنتَ مجنياً عليه.

(٤) سعد يتحدى كلاوي

استعر يوليو في نهايته، اقترب نصف الكرة الأرضية الشمالي من الشمس مستقبلاً وجهها حتى كادت تحرقه. المكيفات لا يتوقف هديرها، المثلجات والمرطبات تُباع في دكان حيدر بالجملة، والكبار تخففوا من ملابسهم وبات الكثير منهم لا يرتدي سروالاً طويلاً تحت ثوبه. من الشائع هذه الأيام أن ترى بعضهم يكشف عن ركبتيه أو يحرك طرف ثوبه السفلي في جلوسه ليبرد أعضاءه المتقاطرة بالعرق.

إجازة الصيف لم تنتصف وهناك من ينتظر نهايتها بفارغ الصبر. سيكون أول يومٍ في العام الدراسي سعيداً لجميع أهالي الحارة عدا الثلاثة الذين روعوا الآمنين وأفسدوا السكينة وبعثروا الطمأنينة. يجلسون على السيارات، يتقاتلون في الشارع، أو يقلبون براميل النفايات ويبعثرون محتوياتها. أي شيء يفعلونه بلا هدف ويعيثون به في الحارة غير آبهين بأحد.

اليوم تحلقوا منذ خروجهم من صلاة الجمعة مستظلين بشجرة السدر الكبيرة المنبعثة من فناء بيت شليّل الملاصق لبيت سعد.

كانوا يديرون حواراتهم التافهة بينهم عندما رأى عمران حذاءه الشرقاوي القديم مترباً ومتيبساً ومعلقاً بين أغصان الشجرة.

"يا إلهي.. نعلي ما زال هناك منذ ستة أشهر!"

رفع سعد رأسه لينظر إليه ثم قال بسخرية: "كانت رميةً موفقة يا سلمان، أسقطتَ النبق وتركت الشرقاوي في الأعلى"

النعل المعلق بشسعه في غصن مكسور يتمايل مع الريح ولكنه لا يسقط. ولأن عمران لا يستطيع السيطرة على أفكاره المفاجئة، ذهب إلى طرف الشارع وأحضر حجارةً وراح يرمي الحذاء ليُسقطه. لم يكن يريد الحذاء ليرتديه، فقد تخلص من فردته الثانية منذ أن تعلقت هذه الفردة بالشجرة، ولكنه شيء يفعله بلا هدف أو وعي بالحاجة منه. سلمان لم يتأخر في مشاركته، سرعان ما هرع يرشق الشجرة بوابل حجارته هو الآخر. كانا يصيبان النعل مرة ويخطئانه عشراً. وكل الحجارة التي تُصوب عليه سواءً أصابته أو أخطأته، تسقط في بيت شليّل. بعد جولة الحجارة الأولى سمعا شيئاً يُكسر في البيت فنظرا إلى بعضهما بترقب ولكن لم يخرج أحد منه ولم يسمعا صوتاً بالداخل مما دفعهما لإكمال قذائفهما برغبةٍ أقوى مما كانت عليه.

"هل ستعودان لتوريطنا في المشاكل؟" قالها سعد وسلمان يعقد ثوبه على خصره وعمران يجمع الحجارة من أطراف الشارع فلم

يعيراه اهتماماً وانشغلا بما يفعلانه، بل إن الحماس استولى عليهما فمارسا الرمي بروحانية وكأنهما يرميان شيطان العقبة.

بعد رمية بحجرٍ كبير جاءت من يد سلمان، ارتفع صراخ من داخل المنزل فتوقفا متجمدين في مكانهما ثم تحولا بنظرهما إلى سعد الذي قال بذعر: "ألم أقل لكما؟!... تعالا إلى هنا بسرعة قبل أن يراكما أحد" وانسحب نحو منزلهم وتبعاه مبتعدين عن السدرة. توقفا أمام باب سعد متجمعين بالقرب من البيك آب ولكن أحداً منهم لم يختبئ. وبعدها بثوانٍ، خرج شليّل من بيته وتوقف على الباب ونظر شمالاً ثم يميناً فوقعت عينه عليهم فتوجه إليهم بلا تردد.

"لماذا ترمون بيتي بالحجارة؟"

"ماذا؟" أجابه سعد مستنكراً: "نحن نرمي بيتك؟!"

"لا تقل لي أنكم لم تفعلوا ذلك"

سلمان: "ولماذا نفعله؟!.. حقاً.. تجيك التهايم وأنت نايم"

ثم سعد متقمصاً دور الاستقامة: "هداك الله يا شليّل فنحن للتو وصلنا من المسجد"

"إذاً أنا أبرهة الأشرم وطيور أبابيل هي من ألقت الحجارة على بيتي؟!" قالها بغيض لا يملك معه شيئاً.

"ربما" أجابه عمران: "فأنا لم أرك تصلي معنا الجمعة"

حاول سعد تدارك الموقف: "لا تظلمنا يا شليّل، لقد رأيت صبيةً بالأمس يرمون الشجرة. ربما هم من رموها اليوم قبل وصولنا"

"ولماذا يرمون الشجرة يا سعد؟.. هيّا أخبرني؟"

"قال لي أحدهم أنهم يريدون إسقاط النبق!"

شليّل وهو يختنق بحنقه: "يريدون النبق في منتصف الصيف؟!"

"هذا ما قالوه"

نظر إليهم بغضب وهم لا يكترثون له، عرف أنه لن ينال منهم إلا السخرية ولا جدوى مما يفعله فأنهى الأمر محوقلاً ثم متحسباً عليهم، ثم وهو يَصفِق كفيّه ويعود إلى بيته: "أسأل الله أن يخلّصنا منكم يا كلاب الشوارع"

كانوا ينظرون إليه وهو يقفل باب بيته خلفه ليتأكدوا أن الموقف مرَّ بسلام قبل أن ينعته سعد: "زلابة" ثم نظر إليهما موبخاً: "قلت لكما ألا تفعلا ذلك. ألا يكفي ما حدث خلال الأسبوع المنصرم؟" ثم مبتعداً عن المكان قبل أن يصل والده أو مثيب: "لنذهب إلى البراحة"

نعم، بالفعل، لقد كان أسبوعاً سيئاً بالنسبة لسعد. بدأه بأن تعرض للجلد حتى تورم ظهره وأطرافه في فناء منزل سلمان. لم يتورم ظهره وأطرافه فقط، بل بدا جسده كورمٍ واحد لا يمكن تطبيبه

إلا بغمس سعد كاملاً من قدميه إلى رأسه في برميلٍ من خلطات الكريمات والدهانات المعالجة. ثم بعدها بأيام ألقت الشرطة القبض عليه ورُمي بين الأوباش والمجرمين ولم يستطع والده إخراجه إلا بكفالة شرطي من أقاربهم فصار حديث الأقرباء. هذا ولم يسلم من توبيخ والده ووالدته وسخرية النمام مثيب الذي لعب دوره بنجاح ما إن رآه في سيارة الشرطة.

لم يقتصر الأمر على هذا، فكل أوجاعه الجسدية لم تؤلمه كأوجاعه المعنوية. فعلى الرغم من الإذلال الذي تعرض له، ومما زاد غيضه حتى استحال فيضاً، أن أبا جابر هو الآخر استغل حادثته معهم حتى استطاع إظهار نفسه أمام أهالي الحارة بأنه الجانب الطيّب، الرجل المستضعف، المضطهد، والمعتدى عليه والمقهور. ففي مبادرات الصلح لم يفوّت الفرصة وكشفَ عما في جعبته من بهتان وافتراء متهماً الثلاثة بالترصد له ولأبنائه في أيامٍ سابقة ومحاولاتهم افتعال المشاكل معه وكال لهم العديد من التهم مشتبهاً بهم في تكسيرهم لنوافذ بيته والخدوش على جانبي سيارته وإلقاء النفايات أمام بابه. لم يترك تهمةً يمكن للجيران تبادلها إلا وألقاها عليهم. ورغم أنهم لم يكونوا بريئين من كل التهم، إلا أنه بالغ في الكيل وهم لا يستطيعون تكذيبه في موقفهم الضعيف. حتى إنه تمادى وتمسك بحقه في الشرطة ولم تُجدِ معه كل

الوساطات من آباء الثلاثة وإمام المسجد والمصلحين من الأهالي وظلَّ متعنتاً حتى يكسب جولته ويرسخ في الجميع إيماناً عميقاً أنه رجل صالح. وقبل أن تصل القضية إلى المحكمة أكمل دوره بإتقان وقبل الوساطة وتنازل عن حقه كرجلٍ طيّب فحُفظت القضية في ملفات الشرطة وصدور الثلاثة.

سلمان هو الآخر نال نصيبه من التقريع من والده ولكنه لم يتراجع عن رغبة الانتقام من أبي جابر. ربما كانت محبته للأبكم تحرك هذه الرغبة، وربما لأنه أكثر الثلاثة عرضةً لاحتيال أبي جابر وتعديه عليه في المستقبل لكون بيته أقرب البيوت لأبي جابر، مما يجعله يلتقيه بشكلٍ دوري ويشاهد نظرة السخرية التي تملأ وجهه البغيض. أما عمران فقد عرف جميع من في الحارة ما حدث له، فما إن دخل بيتهم مع والده عائداً من مركز الشرطة، حتى علا خواره حتى سمعه سكان الحارة جميعاً.

"أريد أن أقول شيئاً" قالها سلمان مبتسماً ما إن وصلوا إلى مجلسهم المعتاد واقتعدوا أجسادهم على طوب البراحة.

"ماذا تريد؟" سأله سعد له بلا اهتمام.

"ليس الآن" ثم وهو ينظر إلى عمران الذي دار أمامهما ويده تخرج نبلته من جيبه ورأسه إلى الأعلى تبحث عن حمام الجيران: "فيما بعد"

لم يعلق سعد، لم يقل شيئاً، نظر أمامه فإذا بالأبكم يدخل من بين السيارات وهو يصطنع ابتسامته بشكلٍ مبالغٍ فيه ويتقدم نحوهم حاملاً بين يديه طبقاً مغطى بغلاف بلاستيكي يشف عما تحته.

"ما الذي أتى بهذا الآن" توجس سعد من الأبكم ما إن رآه، أما سلمان فبادله الابتسام مما شجع الأبكم على التقدم حتى وصل إليهما وأشار إلى عمران مبرطعاً ليقترب بعد أن وضع الطبق على الأرض أمامهما.

"برطع.. برطع.. قرطع" قال ذلك بهذه الطريقة وهو يهزُّ رأسه مبتسماً فنظر سعد إلى سلمان الذي كان يطالع الطبق المليء بقطع الكعك المتوجة بالكريما والمنثور عليها المكسرات المطحونة.

"هل هذه دعوة؟" قالها سعد فهزَّ الأبكم رأسه إيجاباً.

تبادل الثلاثة النظرات بينهم وشعروا بغرابة الأمر لكنه لم يكن غريباً، فالأبكم المسكين وقع تحت تأنيب ضميره بسبب توقيفهم في الشرطة ولم يجد طريقةً يعتذر بها سوى هذه الطريقة. لم يتهمه أحد، لم يحمّلوه أسباب ما حدث، ولكن شعوره بالذنب كان يأكله. إنه شاب طيب، ويعتقد أن كل الناس مهما كانت أخلاقهم مفطورين على الطيبة ولها أماكن خفية في صدورهم وأن الفساد في المقابل فعل طارئ لأسباب خارجية.

"جبتها في وقتها" قالها سلمان وهو يزاحم عمران ليسبقه إلى الطبق دون الاكتفاء بواحدة، اغترف الطبق كما لو كان يغترف طبقاً من الأرز. أما سعد فبدا عليه الارتباك حتى أصرَّ الأبكم فمد يده بتردد.

"كثر الله خيرك" قالها سعد بشيءٍ من اللامبالاة ودفع بالكعكة إلى فمه.

جرَّالأبكم بعدها طوبةً لمكانهم وأقعدها أمامهم ووضع الطبق عليها ثم جلس بجانبهم.

"لذيذ والله!" سلمان وفمه محشي بالكعك والكريما تلطخ شفتيه.

"من أين اشتريته؟" وعمران يمضغ بشهية مفتوحة.

أشار الأبكم بيديه وهو يبرطع ففهموا ما يعنيه، قال لهم بإشاراته أن والدته هي من صنعته فاستطرد سلمان في مجاملته بمشاركةٍ من عمران.

"ما رأيك به الآن؟" غمز بها سلمان لسعد وهو يشير إلى الأبكم الذي أمال جسده بفضول محاولاً الاستماع لما يقولانه.

"ماذا تعني؟" أجابه سعد بتساؤل وهو يدرك ما يعنيه.

"ألم أقل لك أنه صديق مفيد.. كنتَ تكابر وتشبهه بعمران بلا دليل.. ها هو اليوم يقدم لك طبقاً لم تذق مثله بحياتك" ثم مشيراً

إلى عمران الذي لم يهتم بتحقير سلمان له ولم يرفع رأسه: "حتى ابن الذوات هذا لم يذق مثله في حياته"

سعد بتعجب: "لم أذق مثله في حياتي؟!" ثم محاولاً إنهاء الموضوع: "لا تبالغ يا سلمان"

"بالنسبة لي فأنا لم أذق مثله في حياتي!" تدخلَ عمران وألقى جملته وهو يلوك بفمه كتيس مما دفع سلمان إلى استطراد لا يريده سعد: "أنت مجحف يا سعد" قالها بصوتٍ مرتفع والأبكم ينظر إليهما ويتابع ما يدور بينهما: "الرجل كل يوم يثبت أنه صديق طيّب وأنت تتسقط أخطاءه. لماذا تفعل ذلك؟ هل تملك له ضغينة قديمة لا نعرفها؟ هل تعرفه قبل أن يسكن الحارة؟" ثم حاثاً سعد: "هيّا أخبرنا وكن منصفاً معه ومعنا"

وقع سعد بين سندان الرغبة في الرد عليه ومطرقة حضور الأبكم معهم. لا يريد التطرق للموضوع ولكن ثقة سلمان أغاضته ودفعته إلى إجابته بغضب: "وانكشاف أمرنا يوم الحادث؟!.. ألم يكن هو من فضحنا؟" ثم مديراً جسده إلى سلمان: "وحادثة الشرطة؟! ألم نساق جميعاً إلى مركز الشرطة ورُمينا في التوقيف بسببه؟ أم أن كل هذه المشاكل حدثت هكذا فجأة؟ أليس الأطرم هو السبب؟" ثم بعد أن اعترى التعجب سلمان الذي ينظر إليه: "عمران أفضل منه.. حدث كل هذا وصديقك بلا لسان! فكيف

سيكون وضعنا لو كان يملك لساناً؟!" قالها بغضب لم يستطع السيطرة عليه والأبكم ينظر إليه بوجهٍ أذهلته الصدمة فاندفع ينفث غضبه من صدره ووقف على رؤوسهم وسحب الطبق من أمامهم وذهب به إلى بيتهم وهو ينظر إلى سعد شزراً.

"لقد أغضبت الرجل مرةً أخرى!"

سعد بتذمر: "أنت السبب"

قال عمران: "لماذا لم تتركنا ننهي الطبق على الأقل؟"

سلمان: "وأنت مقبرة لا ترد ميت؟!" ثم بعد أن نظر إلى سعد: "لماذا تعامل المسكين بهذه الطريقة؟"

سعد: "ألا ترى ما يحدث لنا منذ دخوله بيننا.. كنا نسرق أنابيب الغاز من بيوتنا ونبيعها، نسرق سيارات الحارة، نقفز في البيوت، نعبث كيفما نشاء وبمن نشاء ولم يحدث لنا أبداً ما حدث منذ دخوله بيننا. تعرضنا للضرب والسجن في أسبوعٍ واحد.. ألا تدرك هذا؟.. إنه منحوس يا سلمان"

بلغ الغضب بسعد مبلغه ولكن سلمان لم يتراجع، صمت لبرهة قبل أن يحاول تفنيد اتهامات سعد: "هذا الكلب هو سبب حادثة السيارة" وهو يشير إلى عمران الذي كان يمسح أصابعه دون أن يجيبه. "أما الشرطة.. فلا تنسَ أنك من اقترح إبلاغهم" ثم بوضوح

مختصر: "لقد كانت فكرتك فلا تلقي باللائمة عليه. كما أن هناك شيئاً غريباً حدث يومها وفكرت فيه ولم أجد له سوى معنى واحد"

قال جملته الأخيرة وهو يفكر بتمعن فنظر إليه سعد متسائلاً عما يعنيه.

"أعتقد أن الشرطي الذي باشر حادثة الهاتف على علاقة قرابة بأبي جابر"

سعد وهو ينظر إليه بتعجب: "وكيف خمنت ذلك؟"

"أنا لم أخمن.. أنا متأكد أنهما على صلة قرابة" وقبل أن يقول أحدهما شيئاً: "صدقاني.. لا يمكن أن يكون ما حدث طبيعياً.. هل يمكن أن يترك حق الأطرم بهذه السهولة ويلقي القبض علينا؟! هذا غير معقول!" طالع سلمان بعينين مفتوحتين وجه سعد وهو متأكد مما يقوله ولكن هذا الأخير لم يقنعه ما سمعه.

"وما الذي يجعلك متأكداً؟!" سأله عمران.

"من اسمه!" أجاب سلمان بلا تلكؤ: "ألم تسمعهم في الشرطة ينادونه أبا جابر؟! أتعتقد أن هذه مصادفة؟!"

"إنه تشابه أسماء يا سلمان" قالها سعد بإحباط ما إن تأكد من هذيان صديقه المعتاد وتحليله للأمور بطريقةٍ غبية.

"تشابه ماذا؟ من أين أتيت بهذا الكلام؟!" ثم بشكلٍ قاطع: "التشابه في الأشكال فحسب" وعندما نظر إليه سعد بتعجب: "قيل

في الأمثال: يخلق من الشبه أربعين.. لم يقولوا يخلق من الأسماء أربعين! فالتشابه إذاً في الأشباه والأشكال وليس في الأسماء!"

"أليس أمير الرياض اسمه سلمان؟"

"وما دخل هذا الأمر؟" وبعد أن نظر إلى سعد بتعجب: "هذا أبو جابر وليس جابر، والشرطي أبو جابر هو الآخر. ولو كان اسمه جابر لقلنا ربما يكون ما قلته؛ تشابه الأسماء الذي لا أعرف من أين أتيت به"

"يا سلمان.. يا سلمان" ثم أخرج زفيراً مندلعاً من صدره وقال بصبر: "أنا أعرف أن رأسك مجوف ولا عقل بداخله، ولكني كثيراً ما أجد عذراً لما تقوله. أما ما لا أستطيع فهمه؛ فهي طريقتك في إسقاط الأمثال على أشياء لا تمت لها بصلة!"

"ماذا تعني؟"

"كيف استطعت استخلاص هذه النتيجة من مقولة (يخلق من الشبه أربعين)؟ لماذا تجعل التشابه حكراً على الأشكال فقط بسبب مثلٍ واحد؟!"

"أقول لك لقد سمعتهم في مركز الشرطة ينادونه بأبي جابر تماماً كما ننادي هذا الكلب! الكنى متشابهة وليست الأسماء يا سعد"

استقر الصمت بينهما لوهلة وسعد ينظر إليه بخذلان ولا يجد تبريراً مقنعاً لغباء صديقه: "إنه لا يمت له بصلة، الشرطي بريء من أي اتهام. ولكننا تهورنا قليلاً في تعاملنا مع أبي جابر. هذا كل ما في الأمر"

"قليلاً؟!" ضحك سلمان على إثر ذلك متذكراً ما حدث: "لقد مسحنا به اسفلت الحارة" ثم علت قهقهته مرةً أخرى.

سعد لم يكن يريد الضحك، ندت عنه ابتسامة فاترة سرعان ما ذبلت على وجهه وظلّ يدور في متاهة الأيام السيئة التي يعيشها حتى شعر بخوفٍ من المستقبل، بل يخشى الحاضر، يخاف الآن. لم يعد يعرف موعد المصيبة القادمة التي لن يكون له يد فيها ولكنه سيقع في أتونها. كما أن وجه والده وهو يطالبه بسداد حيدر كان يتبدى له بين الوقت والآخر في مجلسه معهم وهذا ما شغل باله ودفع قلقه إلى ذروته. لم يكن يكره الأبكم، لم يكن يريد خوض هذا النقاش أمامه أو حتى منفرداً مع سلمان، ولكن دين حيدر يوّترُ أعصابه وخصوصاً عندما يتبادر إلى ذهنه أنه لن يجد دكاناً آخر يمكن له الاستدانة منه. ها هو الآن يشعر بالعطش بعد كعك الأبكم ولا يعرف ما يجب فعله، يريد الذهاب إلى الدكان لشرب المرطبات ولكنه لا يعلم ما الذي يمكن أن يحدث هناك بعد شكاية

حيدر لوالده. وكمن يحدس بما في خاطره، قفز سلمان بفكرته وهو يتلمظ: "أشعر بالعطش.. لنذهب إلى الدكان"

هذا ما جال بخاطر سعد ولكنه تردد في البداية قبل أن يستسلم لما ليس له من بد فقال بلا عزيمة: "هيّا بنا"

عمران في تلك الأثناء أصابه التلبك، هرَشَ رأسه ووضع نبلته في جيبه الجانبي ومشى معهم حتى خرجوا من البراحة ثم قال باضطراب: "أووه.. لقد تذكرت.. يجب عليّ الذهاب إلى البيت"

"ألن تذهب معنا؟" حدّق سعد في عمران بعد ما قاله.

"لا.. لقد تأخرت.. أبي ينتظرني"

سلمان: "هل هذا صحيح؟ هل تأخرت؟ هل والدك ينتظرك؟" ثم ساخراً منه: "وما الذي يريده منك يا ترى؟"

"إنه يحتاجني في بعض الشؤون" يجيب عمران دون أن ينظر إليهما بكذبته المختبئة خلف عينيه.

"وما هي تلك الشؤون؟" ثم أكمل سلمان هازئاً: "لو كان أبوك يعرف ما ستصبح عليه لرماك بقماطك أمام المسجد يوم ولادتك"

يعرفان ما يحيك بصدر عمران، لا يريد دفع مصروفه عليهما. يجبرانه على الدفع حتى لو كانا يملكان المال فقرر الفرار قبل التورط معهما. قال وهو متجه إلى بيتهم دون أن يعبأ بما سيقولانه: "لا.. أنا فعلاً تأخرت وأبي يريدني"

لم يسكتا بطبيعة الحال، تناولاه بسخريتيهما وهو يؤثر النجاة بماله.

"يجيبك الموز يا قرد" قالها سلمان فأتبعه سعد بغيض صريح: "هل تعتقد أنك إذا لم تدفع اليوم لن تدفع غداً؟"

"دعك منه" نظر سلمان إلى سعد وهو يقولها ثم أكمل كمن ينتظر فرصة الاختلاء بسعد: "أريد أن أقول لك شيئاً"

سارا معاً في منتصف الشارع وسعد يولي اهتمامه لسلمان: "ماذا لديك الآن؟"

"أريد أن أخبرك أني أعرف" قالها سلمان متمايلاً في سيره وهو يبتسم بخبث لسعد فخشي هذا الأخير مما يدور في عقل هذا المجنون.

"ماذا تعرف؟"

أغمض سلمان عيناً وفتح الأخرى وقال مبتسماً: "على هامان يا فرعون؟ قلت لك أني أعرف" ثم متبعاً بثقة: "لقد رأيتك"

"ماذا تعني؟ ماذا رأيت؟" كان خائفاً وهو يقولها.

"يا سعد لا تحاول الإنكار.. لقد رأيتك تعاكس الخادمة"

هكذا، دفعةً واحدة رماها في وجهة ما إن أصبحا وحيدين فكادت أن توقع قلب سعد بين ساقيه وضاعت منه الجمل ولم يعرف ما يجب قوله: "ماذا تقول؟" ثم مستدركاً: "كيف رأيتني؟"

أجابه سلمان وهو يحاول أن يكون غامضاً: "لا يهم.. المهم أني رأيتك وكفى!"

حاول سعد استعادة رباطة جأشه والتمسك بشجاعته منكراً: "من أين أتيت بهذا الكلام؟"

"أقول لك رأيتك.. لم يقله لي أحد فلا تحاول الإنكار" ثم مضيفاً: "ورأيتها تهشم وجهك بالكيس الذي بيدها" ثم ضحك ببلاهة لم يكن بحاجةٍ إلى ادعائها فلم يعد بيد سعد المماطلة أو الإنكار، أصابته الخيبة وتضعضعت محاولاته في التملص وبات الآن أمام واقعٍ لا يستطيع الفرار منه. رآه ذلك اليوم بوضوح وعن قرب وبكثب. شاهد المشهد كاملاً بكل تفاصيله. خرج يومها من باب بيتهم وهما بالكاد تجاوزاه ولم يشعرا به، رأى سعد يوليه ظهره بجانب الخادمة ويسير بمحاذاتها ويتغزل فيها فتبعهما مختبئاً خلف السيارات على جانب الشارع ورأى كل شيء. حظ سعد البائس هو من شارك في إنجاح مهمة سلمان ولولا ذلك لما كان لهذا الأبله أن ينجح في شيءٍ يفعله.

قال سعد: "كنتُ أعرف أن لديك ما تقوله منذ ابتسامتك الخبيثة يوم حادثة الهاتف مع أبي جابر" ثم ساخراً من نفسه: "يا لها من أيام سيئة، لم أكن أتوقع أني سأعاكس خادمةً في يومٍ من الأيام"

"أتريد الحقيقة؟" ودون أن ينتظر إجابته: "أنت غبي.. ألم ترَ عباءتها القذرة؟ ألم تسمع لغتها المكسرة؟"

"لم تقل شيئاً.. لم تتحدث إليّ. كنتُ أتحدث إليها ولم تجبني. أما عباءتها فقد أخذني منظر جسدها عندما فتحتها ولم أنتبه لشيءٍ آخر"

وبعد صمتٍ قليل قال سلمان: "ولكن لا تخش شيئاً، فلن أخبر أحداً" ثم مضيفاً وهو يبتسم: "هنا حفرنا، هنا دفنا"

بالفعل هي أيام سيئة، ها هي فضيحته تتردد على لسان سلمان الذي لن يحافظ عليها كما وعده، إنه متأكد من ذلك. هذا الحمار لا يعرف الوقت المناسب لما يقوله أو لماذا يقوله فاستشعر سعد خطراً قادماً يتوقف على شفاه سلمان واضطرب قلبه معه.

اتجها إلى دكان حيدر، يتكسران في منتصف الشارع كأنما يريدان فرض سيطرتهما على الحارة ومن فيها. الظهيرة الملتهبة أفرغت الحارة من المارة والسيارات، والعائدون من صلاة الجمعة هرعوا إلى بيوتهم هاربين من الحر فلم يلتقوا أحداً في طريقهم. دكان حيدر هو الآخر كان فارغاً. جموع المصلين انتهت من تسوقها في طريق عودتهم من الجامع منذ وقتٍ طويل وتوجهوا إلى منازلهم ولم يبق إلا المتسكعين وبعض المتسوقين الصغار.

وقبل أن يدرك حيدر المسكين من يتقدمان نحو دكانه، كان في حالةٍ طبيعية واستقرار مطمئن بيومٍ روتيني حتى دخلا عليه فروعا سكينته. دخلا على حين غرةٍ منه وتوجها مباشرةً إلى الثلاجات قبل أن يستطيع التفكير. ففي كل مرة يحاول حيدر أن يكون صارماً معهما ولكن الأمر لا يفلح، يمنعهما، يطاردهما في أرجاء الدكان ويقف أمام مصاريع الثلاجات وفي محاولاتٍ أخرى عندما يتنبه إلى قدومهما يقف لهما على عتبة الدكان ويمنعهما من الدخول وقد يستعين بالأهالي ويشتكي لهم مما يفعلانه. ولكن الأمر إذا نجح مرة لن ينجح في الثانية.

كان غارقاً في نفسه هذه المرة ولم يتداركها حتى فتح كل منهما عبوةً غازية وأفرغ نصفها في معدته قبل تفوهه بكلمة. ثم عادا وهو متصلب كصنمٍ على كرسيه وتوقفا متجاورين أمامه وأيديهما تعبث بالحلويات على الطاولة فتُهمل هذا وتفتح ذاك وهو ينظر إليهما جالساً مستسلماً والشرر يقدح من عينيه.

"لماذا تنظر إلينا هكذا؟" سأله سلمان بلا مبالاة فلم يجبه مما دفع سلمان إلى التوجه بكلامه إلى سعد: "أنظر كيف ينظر إلينا!"

"كيف حالك يا حيدر؟" قالها سعد ولكن حيدر أيضاً لم ينبس ببنت شفة. كان يعرف تماماً ما يعنيه، كان يقول له ضمنياً: "لن

تنال ريالاً واحداً لأنك أخبرت والدي" هذا ما فهمه حيدر ما دام والد سعد لم يدفع له رغم بكائه أمامه وأمام الناس في الجامع.

وما إن طال الأمر وهم ينظرون إلى بعضهم، جاء صوت يعرفانه جيداً من خارج الدكان وسمعاه بوضوح: "يجب عليّ شراء الماء والعصائر قبل ذلك"

نظرا إلى وجهيهما بطريقةٍ مشمئزة والصوت يكمل حديثه إلى أحدهم في الخارج: "سنبدأ التمرين في الخامسة، عليك المجيء لمشاهدتنا.. سأكون بانتظارك" ثم ودّعَ صاحب الصوت محدثه ودخل الدكان فإذا به يجد أمامه سعد وسلمان: "أهلاً.. أهلاً وسهلاً بالشباب"

إنه علي كلاوي، الوجه الذي لا يريد سعد رؤيته وأصابه الاشمئزاز من صوته قبل أن يضع نظره عليه.

أجاباه معاً بلا اكتراث: "أهلاً بك"

"لا تبدوان سعيدان برؤيتي!" قالها بتجهم ثم أدار وجهه إلى حيدر: "كيف حالك يا حيدر؟"

نطق أخيراً هذا الأخير، أجابه باقتضاب تحت ضغطٍ متوتر مما يجده ويعانيه من هذين الاثنين. وكي لا يفلت الأمل من بين يديه، أخرج حيدر دفتر الديون من درج طاولته التي يجلس خلفها وراح يسجل ما ابتلعاه ويتحدث معهما عما يطالبهما به. أما كلاوي

فالتقط من علاقة الصحف بجوار الباب صحيفةً رياضية واتجه بها إلى آخر الدكان حيث ثلاجة المجمدات والآيسكريم وفردها عليها مدعياً أنه لا يأبه بما يحدث.

حيدر كان يتحدث معهما بحدة عن المبلغ الذي وصلا إليه وسعد وسلمان يرميان الكلمات جزافاً ويلتقطان ما تصل إليه يديهما من حلويات ومكسرات. قال لهما أن دينهما شارف على الألفين ريال، وأنه لن يصبر عليهما أكثر من ذلك، وهدد سلمان أنه سيخبر والده كما فعل مع والد سعد.

نظر سلمان إلى سعد: "هل أخبر والدك؟"

"نعم.. فعلها الحقير" قالها بصوتٍ خفيض كي لا يسمعه كلاوي.

أدار سلمان عندها رأسه نحو حيدر وقال مهدداً: "اسمع يا حيدر.. مالك ستأخذه، فلا تورط نفسك معي وتخبر والدي. وإذا فعلت ذلك فصدقني لن تنال ريالاً واحداً"

كاد يبكي حيدر، أوشك على الجنون وهو يعرف أن ما يقوله سلمان لن يحدث أبداً، لن يدفع، لن يدفع، لن يدفع هذا المعتوه حتى لو حاز كنوز الدنيا، يكاد يصرخ بها ويفقد عقله.

كلاوي كان يتلصص بنظره عليهما في نهاية الدكان ويسترق السمع لما يحدث معهما ويحاول كتم ضحكته المدعية ويعود إلى قراءة الصحيفة.

"ما بك يا علي؟ ما الذي يضحكك؟" نظر إليه سلمان متسائلاً.

"لا شيء، خبرٌ في الصحيفة" قالها وهما يعرفان أنه يكذب.

"أصبحت مثقفاً!" اقترب منه سلمان وهو يقول ذلك، طالع الصحيفة من على كتف كلاوي وحاول قراءة أي شيء فيها ولكنه ليس قارئاً متمكناً، ثم قال: "لا شيء مضحك في الصحيفة! هيّا قل لي.. ما الذي يضحكك؟"

"هذه صحيفة رياضية، وأنا أقرأ أخبار الرياضة"

"أتركه يا سلمان، فيبدو أنه لا يعرف بتوقف الدوري في الصيف"

فُتح النقاش الآن مع سعد فنظر إليه كلاوي وقال: "أنا أعرف أن الدوري متوقف، ولكن هناك أخبار عن انتقالات اللاعبين وعقود المدربين ومعسكرات الأندية واجتماعات مجالس الإدارة"

سلمان: "وماذا يهمك في هذا كله؟"

كلاوي متعجباً: "وماذا يهمني؟!.. ليس من المستغرب أن تقول ذلك، فأنت إنسان سطحي ولا تعلم أن ما يحدث في الملعب هو نتاج مخططات المكاتب وهي من تصنع النجاحات والبطولات"

سلمان: "الله الله يا كلاوي.. أصبحت تعرف الكثير عن كرة القدم منذ أن ترأست فريق حارتكم"

كلاوي: "بل صنعته.. فلم يكن هناك وجود لهذا الفريق"

سلمان: "وهل تظن أن ما تقوم به جدير بالاهتمام؟"

كلاوي: "بكل تأكيد.. وعندما يحين الوقت المناسب سنشارك في أقرب بطولة حواري وسأثبت ذلك"

سلمان: "وما هو اسم فريقكم؟"

كلاوي: "فريق النسور" قالها معتداً بنفسه ولكن سلمان لم يستطع السيطرة على ضحكته.

كلاوي: "ما الذي يضحكك؟"

سلمان مسترداً أنفاسه: "ألا تعتقد أن الاسم فيه مبالغة؟"

كلاوي: "لو أنك حضرت إلى ملعبنا لرأيت أنه اسم يناسب فريقنا تماماً"

سلمان ساخراً: "أعتقد لو أنك أسميته فريق الدجاج لكان أفضل لك ما دمت تقرأ صحيفتك على ثلاجة المجمدات" ثم ضحكا معاً منه.

كلاوي بغيض محاولاً السيطرة عليه: "اسخرا كما تشاءان ولكن الغد سيثبت لكما عكس ذلك"

سلمان: "وما الذي يجعلك على هذا القدر من الثقة؟"

كلاوي وهو ينتفخ بزهوه: "أفضل لاعبي منفوحة طلبوا مني الانضمام ولكن لم يعد لدي مكان شاغر. الملعب لا يكفي أكثر من ستة عشر لاعباً والمسجلين لدي زادوا على العشرين. بعض اللاعبين يستاء إذا أشركته بديلاً في المناورة اليومية ويطالب باللعب أساسياً. كما أننا نتلقى دعماً مادياً من الأهالي، ولدينا الكثير من المعجبين والمتابعين للمران اليومي" ثم بعد أن رأى الغيض يفيض من وجهيهما: "ولدينا معجبات من الجنس اللطيف أيضاً"

اندفع سلمان مجيباً بغيض: "سعد أيضاً لديه معجبات من الجنس اللطيف"

قلب سعد كاد يتوقف وشعر بخطورة الموقف ولم يسعفه الوقت ليسترد أنفاسه وهو يتابع حوارهما وكلاوي ينظر إليه متسائلاً دون أن يوجه سؤاله له: "هل هذا صحيح؟"

أجاب سلمان: "نعم.. حتى خادمة عمران معجبة به"

أطلق كلاوي ضحكته عالياً عندها وسعد يتقوقع في خيبته. كان يعرف، هذا ما جعله يتجمد في مكانه. الحمار سلمان لن يكتم الخبر كما وعده. ها هو الآن يسبب له فضيحة معتقداً أنه ينتصر له ويُسكت كلاوي الذي راحت قهقهاته تعلو حتى سُمعت

من خارج الدكان: "نعم.. بالتأكيد" وهو يسترد أنفاسه من بين ضحكاته: "الخادمات يلقن به"

تدخلات سعد في الحوار كانت مقتضبة حتى ذلك الوقت. أراد تجنب الحديث المباشر مع كلاوي على قدر الإمكان ولكنه بات مجبراً على ذلك ولا بد أن يستلم زمام المحاورة، عليه إسكات سلمان ومنعه من الحديث قبل أن يفضح أشياء أخرى فقال بوجهٍ يتصبب عرقاً: "اسمع يا كلاوي.. كرة القدم في الملعب وليست كما تدعي في المكاتب.. بت الآن تفهم فيها وأنت لم تكن تستطيع الركض حول ملعب المدرسة لمرةٍ واحدة.. كأنك لم تكن الإنسان الوحيد الذي لم أعرف غيره يرسب في مادة الرياضة!"

أقفل عندها كلاوي صحيفته وراح الحديث يأخذ منحاً متحدياً: "مادة الرياضة لا رسوب فيها، هذا ما يجب أن تضيفه لمعلوماتك الضحلة. كما أن من يتولى تدريب فريق، لا يجب أن يكون لاعباً كبيراً.. معظم مدربي العالم وأكثرهم شهرةً لم يلعبوا كرة القدم كمحترفين ولكنهم برعوا في التدريب على أي حال" ثم أضاف محاولاً السخرية من سعد: "الوقت تغير الآن، أنا الآن أشهر مدرب في منفوحة.. ويوماً ما ستراني أقود أشهر فريق حواري في الرياض كلها" ثم بعد توقفه قليلاً: "عمران صديقكما جاء إلينا وشاهد تدريباتنا.. أم أنه لم يخبركما بذلك؟"

سلمان: "بلى.. أخبرنا.. وقال إنك تتحدانا!"

كلاوي: "فعلاً؟!.. وهل أنتما موافقان على التحدي؟" نظر إلى سعد بعد سؤاله.

سلمان: "أعتقد أنك لست جاداً فيما تقوله"

كلاوي: "وما الذي يدفعك لهذا الاعتقاد؟"

سلمان: "لأنك ستخسر التحدي"

كلاوي: "لو كنتُ سأخسره لما تحديتكم"

سعد: "لا تحلم بشيءٍ لا تستطيع تحقيقه يا كلاوي.. أنت تعرف من أنا وتعرف من أنت"

كلاوي: "وما دمت تثق بنفسك إلى هذه الدرجة فها أنا أتحداك"

سعد: "ولكن حارتنا ليس فيها العدد الكافي لإكمال فريق"

كلاوي: "كم ينقصكم؟ اثنان؟ ثلاثة؟ لك ذلك.. أحضرهم من خارج حارتكم وأنا مستعد لمباراتكم"

أشار سعد بيده أمام وجهه كأنه يسخر من الفكرة: "ليس الأمر مهماً بالنسبة لي كي أتحداك.. فلن أفعل"

كلاوي: "ما بك؟ أصبحت تبحث عن ذريعةٍ أخرى؟" ثم متضاحكاً: "حسناً إذاً.. سأقدم لك عرضاً أكبر" وأكمل كلاوي: "سأرفع من مستوى التحدي.. إذا فزتم على فريقي فسأدفع دينكم لدى حيدر، وإذا فاز فريقي ستدفعون أنتم ديني عنده. إنه لم يبلغ

الألف ريال!" ثم نظر إلى حيدر: "أليس كذلك؟" فأشار هذا الأخير برأسه إيجاباً.

كان سلمان مشدوهاً ويفتح فمه لما يحدث بين صديقه وكلاوي دون أن يتفوه بكلمة وهذا الأخير يكمل حديثه: "أنا أعرف أنك لن توافق. اسمع يا سعد.. موهبتك التي تفاخر بها ليست سوى موهبة حواري. أنا فريقي ينتج لاعبين على مستوى عالٍ من الانضباط والقدرة على تطبيق التكتيكات في الملعب وسأكون كشافاً للمواهب عما قريب وكل الذين سيخرجون من تحت يدي سيلتحقون بالأندية. أما أنت.. فتكذب على هؤلاء السذج مدعياً أن الهلال يريد ضمك إلى صفوفه ولكن والدك يمنعك ويقف أمام انخراطك فيه. يا سعد.. أنا أعرفك جيداً منذ كنا صغاراً، أنت مليء بالهراء وليس هناك حقيقة لموهبتك الكاذبة"

الآن أغاضه، كل الغضب السابق استطاع سعد التحكم به ولكنه الآن فقد تعقله واتضح ذلك في أوداجه المنتفخة فقال محتداً: "حسناً إذاً.. ما دمت تتحدانا فأنا قبلت التحدي. متى موعد المباراة؟"

كلاوي: "الأسبوع القادم.. الخميس إذا كنتَ جاهزاً"

سعد: "حسناً.. ولكني سأحضر مع فريقي لاعبيّن من خارج الحارة"

كلاوي: "لك ذلك" ثم طوى الصحيفة ووضعها تحت يده وقال: "الموعد ملعبنا يوم الخميس القادم" وخرج من الدكان كمن فاز بغنيمة.

فاض به، لم يعد يستطيع السكوت على سخرية كلاوي فاندفع نحو الرهان الذي كان يرفضه في سورة غضب، لم يستشعر ما تورط به وثورة الحمية والانتقام لنفسه تموج به في تخومها. منذ أن كان صغيراً وهو يضرب كلاوي في كل مكان، في الفصل، في حارتهم، في حارته، في دكان حيدر، في حلقة تحفيظ القرآن، بعد كل صلاة جمعة. كان يتسلى به ويجلده وهو يضحك حتى كبرا معاً وكبرت معهما الكراهية. المرة الوحيدة التي استطاع فيها كلاوي النيل من سعد عندما جاء أبناء عمومة كلاوي من خميس مشيط واستعان بهم وانتقم لنفسه من مذلة الأعوام الماضية. اشتبكوا معه في عراكٍ أمام دكان حيدر وشجوا رأسه ولكنه صمد لهم بشجاعة ولم يستسلم وألحق بهم الأذى رغم أن الغلبة كانت لهم. وهل تظنون سعد سيتركه؟ بالطبع لا. ظلّ يترقبه في الحارة حتى وجده ذات يوم بعد رحيل أبناء عمومته فجلده حتى أبكاه. وحتى بعد أن توقفا عن العراك وكبرا عليه، ظلّ الحقد بينهما وتبادل النوادر والغيبة والنميمة تذكي هذا العداء المستعر. اليوم انتقلت المعركة إلى الملعب. ما حدث بينهما يشبه إلى حدٍ كبير

كأس العالم بعد حربين عالميتين تصارعت فيها الدول بالجيوش ثم ارتقت حضارياً وباتت تتصارع رياضياً. انتقمت ألمانيا وإيطاليا لخسائر جيوشها بالفوز بكأس العالم وتسيّد العالم كروياً أمام فرنسا وروسيا وأمريكا وبريطانيا الذين كانوا يخسرون في كل بطولة عدا هذه الأخيرة التي فازت ببطولة ١٩٦٦م وما زالت بطولة مشكوك في أمرها حتى اليوم. كانت هذه الدول تحاول إشعار العالم أنهم يتركونهم يفوزون لينفسوا عن غضبهم بعيداً عن المواجهة. إنها ثقافة الفائز الواعي، ما دمتُ فزتُ في الحرب وسيطرتُ على العالم كقوة عظمى فسأجعلهم يستعيدون كرامتهم في لعبة. أنا على قمة العالم، سأستمتع بنصري بعيداً عما يثير نزاعاً جديداً يؤدي إلى مزاحمتي على القمة.

كذلك الصراع بين سعد وكلاوي، فرغم أنه لم يكن واعياً أو متحضراً ولكنه صراع حسب الممكن والمتاح. صراع متوافق مع أعمارهم وربما لو بقيا في منفوحة لسنين قادمة لرأينا صراعاً مختلفاً بعد أن يكبرا على لعب كرة القدم، ربما في البلوت، ربما على إمامة المسجد أو التزاحم على الصف الأول في هرمهما، وربما ينتقل العداء إلى أبنائهما فتصبح دورة الكراهية جينية متوارثة.

وقف سعد على باب الدكان وهو ينظر إلى أفق شارع عشرين ويفكر فيما حدث. يهجس بلا وعي لما حوله ولا يشعر إلا بالحقد

والكراهية والعزيمة على إذلال كلاوي منفوحة الفاسد الذي ظلَّ يطارده منذ صغره. تراءت له عباءة قادمة من حارتهم ولكنه لم ينظر إليها. صور كلاوي تتردد في مخيلته وغيّبته عما يحدث حوله. كان يراها تتمايل وتتكسر في مشيتها ولكنه أبداً لم يستيقظ من هواجسه. وما إن مرت بجانبه وهو ينحدر عن درج الدكان حتى لوت جذعها تنظر إليه ولكنه لم يعرها اهتماماً.

اتجه مع سلمان إلى حارتهما وهذا الأخير لا يغلق فمه: "أحسنت صنعاً.. سنلقنه درساً لن ينساه.. هذا المجنون يتحدانا؟! يبيع البيض على سلاقينه! لا بد أن نريه حقيقة فريقه القذر" ودون أن يجيبه سعد: "سنجمع فريقنا عصر اليوم.. يجب أن أخبر عمران بما حدث" ثم وهو يضحك: "سيكون سعيداً بالخبر" ثم وهو يدلك كفيّه ببعضهما: "ليتك جعلت المباراة اليوم، أو غداً، لا أستطيع الانتظار إلى يوم الخميس القادم"

ما إن وصلا إلى بيت سعد حتى استدار هذا الأخير نحو سلمان وسأله: "كم قلنا أننا وصلنا في عدد اللاعبين؟"

سلمان: "لستُ متأكداً.. لنعُدهم من جديد" ثم فارداً أصابعه أمامه كما فعلها ذلك اليوم: "أنا.. أنت.. عمران.. وابنا خالتي"

"ومثيب" قالها سعد وسلمان يعد أصابعه المفرودة أمام وجهه فنظر إليه بتعجب: "ألم تقل إنه لن يوافق على اللعب معنا؟"

"سيوافق كارهاً ولن يستطيع الرفض" كانت عينيه ساهمتين وهو يقولها بعزم فأكمل سلمان العد: "أصبحنا ستة إذاً"

"وأنا سأحضر اثنين ونصبح ثمانية" ثم متفكراً: "ولكننا بحاجة إلى أشياء أخرى"

سلمان: "ماذا تعني؟"

سعد وعيناه لا تبتعدان عن أفق أفكاره: "نحتاج زيّاً موحداً للفريق" ثم مبرراً كلامه: "لا يجب أن نظهر بأننا أقل منهم"

سلمان: "ومن أين سنأتي به؟"

سعد: "هذه ليست مشكلة، سأستعيره من أحد الأصدقاء" ثم مستدركاً: "ولكننا نحتاج إلى ما هو أهم من ذلك"

سلمان: "ماذا؟"

سعد: "أنت وعمران ومثيب.. عليكم استعادة لياقتكم خلال الأسبوع القادم"

سلمان: "أنت محق في هذه"

ثم عاد سعد يسرح في خياله بما حدث، كان يرجح الكفتين ويستفيق من سورة غضبه ويحاول سبر ما هو مقدم عليه. أن يفوز على كلاوي! يا إلهي! إنه أمر مستبعد بسلمان وعمران! ولكنه كان يتراجع ويهجس بمهاراته التي ستصنع الفرق.

قاطع سلمان حبل أفكاره وهو يغمز له: "ألم ترها في الدكان؟"

سعد: "من؟"

سلمان: "حبيبتك!" ثم ساخراً: "الخادمة"

سعد: "يا وقح.. وهل سأنظر إليها أيها الأبلة"

سلمان ساخراً: "عادي.. تسلى بأم شوشة لين تجيك المنقوشة"

ولم يكد يتم جملته حتى دخلت من أول الشارع تتخبط في عبائتها مسرعةً حتى وصلت إليهما فلم تبعد نظرها عن سعد. مرت بمحاذاتهما حتى اجتازتهما وهي تعلق بصرها عليه ثم ظلّتْ تلتفت بين الخطوة والأخرى.

قال سلمان ساخراً: "أبسط يا عم.. الآن أصبح لديك معجبات حقاً" وضحك بملء فيه وسعد يلعنه ويلعنها ويعود للتفكير بما هو أهم.

وقفة:

الانطباع الأول ليس جديراً بالثقة، فقد يولد الحب بعد الكراهية وقد تولد الكراهية بعد الحب.

(٥) جمع فريق مشتت

أطلَّ سعد على الصالة فرأى مثيب يجلس مع والديه أمام التلفاز. أعاد رأسه منسحباً بعدها وخرج من المنزل. توقف على باب بيتهم وهو يفكر بالطريقة الصحيحة للتحدث مع مثيب. ليس من السهل مفاتحته بالموضوع وليس من السهل قبوله. إنه بحاجةٍ إليه، لن يكتمل فريقهم بدونه، إنه لاعب جيد رغم أنه لا يمارس كرة القدم بشكل مستمر. هجرها منذ إطلاقه لحيته وتقصيره ثوبه ولم يعد لممارستها إلا في المخيمات الدعوية دون أن يتعدى لعبه تزجية الوقت والمرح مع أصدقائه الملتزمين.

فكر ألف مرة فيما سيقوله له والطريقة المناسبة لقوله، كيف سيبدأ حديثه، كيف سيفند مبرراته عن الملاهي إذا ما تذرع بها وتحديداً عبارة (بيضة إبليس). ولكنه رغم كل هذا لم يجد فكرة معقولة أو وسيلةً مقنعة يستطيع بها مفاتحة مثيب في خضم تفكيره الطويل سوى حلّه الأخير الذي سيساومه به إذا ما استعصى عليه إقناعه.

منذ يومين وهو يؤجل الموضوع بسبب تردده وخوفه من رفضه. أراد ترتيب جمله في سياقٍ منتظم وراح يقولها لنفسه بصوتٍ خافت وهو يحرك يديه متخيلاً مثيب أمامه.

"لو أن شيئاً محرجاً حدث لك أمام الناس فهل تظن أني سأتخلى عنك؟"

"لا.. لا.. لا" حرّك رأسه على الجانبين ثم حاول مرةً أخرى: "يا مثيب إنه يتحداني.. قال لي كلاماً مخزياً وأضحك فريقه عليّ"

وعندما لم يعجبه أياً مما قاله أعاد صياغة الأمور مجدداً: "أنت لاعب فنان، لديك مهارات مميزة وسترجح كفة أي فريقٍ تنضم إليه"

بدت له هذه الجمل معقولة لأنها تلامس غرور مثيب. ولكنه لا يفهمه وليس متأكداً إذا ما كانت ستعجبه. فهو يحب الظهور بمظهر المتقشف، غير المبالي بالحياة وملذاتها والزاهد في متعها فلم يتأكد أنها ستعجبه.

كان مستعداً للمران اليومي مع سلمان وعمران، ارتدى ملابسه الرياضية وأراد الاتجاه إلى البراحة لملاقاتهما ولكنه خشي أن يمر يومٌ ثالث دون أن يفاتح أخاه بالموضوع. الأيام تمر بسرعة نحو الخميس المنتظر ولا بد أن يخبره اليوم ليتمكن من رفع لياقته

ويكون مستعداً للمباراة أو يمكنه عندها البحث عن بديلٍ آخر في وقتٍ مبكر.

رأى سلمان يخرج من بيتهم في تلك الأثناء، توقف على الدرج وراح يمدد جسده مرتدياً ملابسه الرياضية، ثم سبر أفق الشارع فإذا بعمران يتقدم هو الآخر من بيتهم.

داهمه الوقت ويكاد مرانهم يبدأ اليوم وأيضاً بلا مثيب، الأفكار تزاحمت في عقله وأحس بضغطٍ يرهق أعصابه دون الوصول إلى نتيجةٍ محددة. وقبل أن يتجه إليهم، خرج مثيب من الباب وأطلَّ على الشارع فرأى سعد أمامه يضرب أخماسه بأسداسه وعندما انتبه له هذا الأخير نظر إليه متبسماً.

صاح سلمان من هناك: "تعال يا سعد"

رفع سعد يده عالياً مشيراً بالانتظار وتوقف ينظر إلى مثيب على باب بيتهم. يراجع وجهه ويبحث عن الأنسب بين مفاتحته في الموضوع أو تأجيله إلى وقتٍ آخر. الوقت المناسب فيصل في الأمر، إذا لم يكن الوقت مناسباً الآن فمن الأفضل تأجيله إلى يومٍ آخر أو ساعةٍ أخرى. الموضوع بالنسبة لسعد حساس ولا يمكن العبث به، فإذا رفض مثيب اللعب معهم فسيقع في ورطة بدون أدنى شك وسيتعين عليه العودة إلى كلاوي للتأكد من موافقته على إضافة لاعبٍ ثالث من خارج حارتهم.

"مثيب.. أخي العزيز.. هل يمكنني التحدث معك في موضوع مهم؟"

شعر مثيب بالخطر وفتح عينيه متطلعاً. اللغة التي تحدث بها ونبرة الخضوع والتذلل أرعبته، واليومان الماضيان كان تعامل سعد معه محيراً فلم يفكر عقله إلا بمصائب أخيه المعتادة.

"ماذا يا سعد.. هل حدث شيء ما؟" قالها بهلع.

"تعال إلى هنا" انتحى به جانباً حتى وصلا مؤخرة البيك آب وفتح باب حوضه وأجلسه ووقف أمامه متردداً: "أريد الحديث معك"

"أوقعت قلبي يا سعد.. ماذا هناك؟"

كان خائفاً في الحقيقة ولكن خوفه لم يكن مساوياً لخوف سعد مما جعل التردد يسيطر على هذا الأخير ويفقد نقطة البداية واتجاه بوصلته حتى ضاق ذرعاً بهذه المشاعر القلقة والخائفة التي تسيطر عليه فاندفع مرةً واحدة.

"اسمع يا مثيب.. نحن اخوة.. ومهما حدث بيننا فلن ترضى أن يساء لي كما أني لن أرضى أن يُساء لك.. وعندما أحتاج شيئاً فلن أذهب إلى أحدٍ غيرك كما هو الحال معك عندما لن تذهب لأحدٍ غيري"

"قل لي ماذا حدث يا سعد؟"

"اهدأ يا مثيب.. اهدأ أرجوك.. الأمر ليس كما تظن.. ولكنه تحدي وهذا التحدي يجب عليّ الفوز به وألا أسمح لأحدٍ بالسخرية مني"

تنفس مثيب الصعداء ولكنه لم يستطع السيطرة على قلقه وهو يستمع إليه.

"أنت تعرف أن أبي طلب مني تسديد ديوني لدى حيدر في نهاية الشهر. وصدقني لو تسولت أمام الجوامع طوال شهرٍ كامل فلن أستطيع جمع المبلغ الذي يطلبه مني حيدر. وأنا منذ أيام وأنا أفكر في الموضوع ولا أجد حلاً، وفي المقابل، لا أريد إغضاب أبي عندما يحل موعد السداد وأنا لم أفِ بما طلبه"

نظرة مثيب راحت تتبدل وقال بلا اكتراث: "ماذا الآن؟ أتريد أن أساعدك في سداد دينك؟"

"نعم.. ألست أخي؟ أليس الاخوة يساندون بعضهم؟ ألم تقل أنك تحبني هنا منذ أيام وأنك تتمنى لي الخير؟"

"ولكني لا أملك كل هذا المبلغ"

"لا.. لا.. لا أريد منك أن تعطيني مالاً"

فنظر إليه مثيب بتعجب: "ماذا تريد مني إذاً؟"

"منذ يومين حدث أمر أظن أنه سيجعلني أسدد دين حيدر دون دفع ريالٍ واحد" ثم مستطرداً ومثيب يتابعه باهتمام: "قبل أيام

التقيت بعلي كلاوي في دكان حيدر.. أنت تعرفه! علي كلاوي الذي يسكن بالقرب من ثانوية البنات" وبعد أن هزَّ مثيب رأسه إيجاباً أكمل سعد: "المعتوه نظم له فريقاً في حارتهم وقدم لي عرضاً لم أستطع رفضه بسبب ما أنا فيه من ضغط والدي.. قال لي أنه يتحدانا في مباراةٍ بين حارته وحارتنا.. ووصلت به السخرية بنا أنه جعل جائزةً لنا إذا فزنا عليه بأن يدفع ديوننا لدى حيدر كاملةً" وعندما شعر أن إمارات اللامبالاة تتمثل على وجه مثيب: "هذه الفرصة يا مثيب لا تفوّت، ولأني أعرف أنك لاعب ماهر، فقد كنتَ أول من تبادروا إلى ذهني لأضمه لفريق حارتنا" ثم مكملاً باستسلام: "أرجوك يا مثيب لا تردني خائباً.. أنت عنصر مهم في الفريق وسترجح كفتنا على فريق كلاوي.. أنا بحاجةٍ إليك في هذه المباراة فاترك كل خلافاتنا جانباً.. سيظل هذا المعروف الذي تقدمه لي ديناً في عنقي ما حييت يا أخي.. أرجوك لا تردني خائباً"

أراد مثيب وهو ينظر إليه قرص نفسه أو ضرب رأسه بقبضته ليتأكد أنه لا يحلم. لم يتوقع في يومٍ ما أن يتوسل إليه سعد بهذه الطريقة. كان منظره مستسلماً، ذليلاً، ويتشبث بقشته الأخيرة قبل الغرق. يقف بخضوع ويرخي كتفيه ولا يطيل النظر في عيني مثيب.

ورغم أن ما قاله سعد هو الحقيقة، إلا أنها ليست كاملة، فهو لم يقل لمثيب أنه سيسدد دين كلاوي إذا خسر المباراة لأنه يعرف مثيب جيداً ويدرك أنه إذا أخبره بذلك فسيقول هذا الأخير أن ما يقومون به قمار ولن يشارك في خطيئته، فآثر كتمان الأمر ومثيب لم يسأل عنه.

"ولكنك يا سعد تعرف أني لم أعد ألعب كرة القدم منذ مدة طويلة"

"لا يهم.. سيلعب معنا سلمان وعمران.. هل هذان الاثنان يعرفان كرةَ القدم أساساً؟! أما لياقتك فيمكنك استعادتها بالتدرب معنا كل يوم حتى موعد المباراة"

"لا أستطيع يا سعد.. أنا آسف.. هذه الملاهي لن أعود لها بعد أن هداني الله وتعلمت كيف أستثمر وقتي في طاعته" ثم محذراً سعد: "بل لا يجب أن أساعدك على التمادي في مطاردة بيضة إبليس!"

ذهب كل شيءٍ الآن من عقل سعد ولم يجد أمامه سوى غضبه من أخيه. لم يعد يجد في يده سوى الطريق الوحيدة التي لم يكن يريد السير فيها: "أهذا ردك على أخيك عندما يستنجد بك؟"

"اسمح لي يا سعد"

"وأين محبتك التي تدعيها؟"

"أطلب أي شيءٍ آخر إلا هذا الأمر"

"وهل يحتاج أن أطلب منك حتى تقف معي؟ هل لا بد أن أصرح لك عما أحتاجه أم أن هذا واجبك تجاه أخيك أيها المجاهد الأخلاقي الفذ"

ارتبك مثيب من جملة سعد الأخيرة، شعر بما يعنيه فقال مضطرباً: "لماذا تتحدث لي هكذا؟"

"أتعتقد أني لا أعرف ما تفعله أنت وأبو جليبيب وأبو قحافة في غزواتكم؟"

تلوّن وجه مثيب وهو يستمع إليه: "ماذا تعني؟"

"أنا لم أخبر أحداً عنكم لأنك أخي ولا أريد لك الضرر.. وعندما أتوسل إليك وأنا في حاجتك تتنكر لي يا مثيب؟!"

"أعتقد أنك تهذي يا سعد"

"لقد رأيت البندقية في سيارة أبو قحافة"

"إننا نصيد بها الضبان والدُخّل والصفاري" قالها وأراد الوقوف فأمسك سعد بيده متحدياً: "أقسم لك أني سأخبر أبي بما تفعلونه، والأسوأ من ذلك سأخبر والد عمران إن لم تلعب معنا المباراة"

سحب يده من يد أخيه بقوة وقال له بارتباك: "ماذا تعني يا مجنون؟"

"أتعتقد أني لا أعرف أنكم تستهدفون الدشوش ببندقيتكم الهوائية لتعطيلها؟"

"من أين تأتي بهذا الكلام؟"

"لقد رأيت البندقية معكم في السيارة وسمعتكم تتحدثون عن الموضوع يا أحمق ولكني لم أخبر أحداً ولم أفاتحك بالموضوع حتى لا أحرجك وها أنت اليوم تتنكر لي"

هذا بالفعل ما كان يحدث، بدأ الناس في تركيب الأطباق على أسطح منازلهم لاستقبال بث القنوات الفضائية فهاج مجتمع المحافظين عليهم. الملتزمون لم يكتفوا بنصح الناس من على المنابر بل حرضوا الشباب المتحمسين على إتلافها وتعطيلها حتى درجت بينهم عادة إطلاق الرصاص عليها من البنادق الهوائية التي لا تصدر صوتاً. كانوا يسمون تسكعهم في الحارات غزوات! يعتبرون ما يقومون به جهاداً اجتماعياً في سبيل إصلاح المجتمع وإنكار المنكر باليد.

سعد لم يكن متأكداً ولكن الأمر بعد تحليله بدا له واضحاً، إنهم يجوبون الحواري ورؤوسهم إلى الأعلى باحثين عن الأسلاك المتدلية من الأسطح فيعرفون البيوت ويبحثون عن جيران ملتزمين لأصحاب أولئك الذين يضعون الأطباق على أسطحهم ويطلبون منهم أن يسمحوا لهم بالصعود على أسطحهم كي يصيبوها

بالرصاص. طلقة واحدة كانت كفيلة بإنهاء حياة الطبق وسيعودون إليه بعد شهر أو شهرين متى ما أتيحت لهم الفرصة. مثيب هو القناص رقم واحد في جماعته، أو ربما يجوز لنا القول في هذه الظروف كتيبته. يستطيع تحديد مكان رأس الطبق في الليل دون الحاجة إلى منظار ليليّ يستخدمه بعض القناصين الآخرين.

"هل تبتزني الآن؟"

"لا.. أبداً.. ولكنك دفعتني لذلك" ثم محولاً نبرته إلى التذلل السابق: "يا مثيب أنا أرجوك رجاءً أن تلعب معنا وأنت تجيبني باستعلاء دون أي تفهمٍ لموقفي"

"ومتى هي المباراة؟" وهو يتفكر.

"يوم الخميس القادم" مستبشراً.

"لم يتبقَ إلا ثلاثة أيام!"

"نعم" ثم مكملاً: "أنت تعرف أن كلاوي يعاديني منذ كنا صغاراً.. أرجوك يا أخي لا تتح له الفرصة ليسخر مني أمام الحارة.. شارك معنا يا مثيب أرجوك"

"وهل سنلعب نحن الأربعة ضد فريق كلاوي؟"

"بالتأكيد لا.. هناك اثنان من أقرباء سلمان سيصلون من الكويت غداً أو بعد غد.. وسمح لي كلاوي بضم لاعبين من خارج

الحارة وهؤلاء الأربعة جاهزون لياقياً.. ولكن المهم أن تتمرن أنت وعمران وسلمان لتكونوا جاهزين"

"حسناً.. دعني أفكر في الأمر" حاول أن يستعيد كرامته بعد أن عرف أنه سيلعب مجبراً وليس راغباً.

"لم يعد لدينا وقت للتفكير يا مثيب.. لا بد أن نقرر الآن" ثم محاولاً استثارة روح المنافسة لديه: "أستطيع إحضار لاعبٍ آخر من خارج الحارة ولن يرفض كلاوي لأنه يستهتر بنا وبفريقنا، ولكني لست متأكداً من أحد مثلما أنا متأكد منك. أنت لاعب ممتاز وسيصاب كلاوي بالصدمة عندما يشاهد مهاراتك"

كان يقف أمامه مستجدياً نبله ومستثيراً حميته ومثيب يُدير رأسه فيما حوله ثم يعيده إلى الأرض متفكراً فيما قاله. كل خصوماتهم السابقة لم يعد لها أثر الآن بصدره وحميته تجاه أخيه توقدت فلم يجد نفسه إلا موافقاً على المشاركة في المباراة: "حسناً يا سعد.. سألعب معكم.. ولكن لي شرط قبل هذا"

انقشعت عن صدر سعد غمامة من الكآبة ولكنه لم يُرد التفريط بالأمر: "هل تريد مساومتي عندما احتجت إليك؟" ثم مكملاً: "حسناً.. أطلب ما تريد"

"لا.. لن أساومك.. ولن أطلب شيئاً مستحيلاً. أريد فقط أن تعدني ألا تعود للاستدانة من حيدر، وأن تترك ألاعيبك الصبيانية

ومشاكلك التي تفتعلها كل يوم في الحارة فتسبب لوالدي الحرج" ثم منهياً كلامه: "هذا كل ما أطلبه"

"لك ذلك يا ابن أبي.. لك ذلك" قالها بسعادة ينضح بها وجهه وأكمل منهياً ما بدأه: "سأذهب الآن إلى الشباب في البراحة، بدل ملابسك وتعال إلى هناك"

ثم تركه متجهاً إليهما. لم يكن يعتقد أن الأمر سيكون بهذه السهولة، ولو كان يملك توقعاً بسيطاً بذلك لما أجله حتى أخره إلى هذا اليوم. اتجه الآن بذهنه إلى أفكارٍ أخرى تطارده من أجل هذا الرهان، اكتمل فريقه الأساسي وبقي أن ينتقي اثنين من أصدقائه سبق له وضعهما في رأسه ولن يتأخرا عن تلبية طلبه والمشاركة في المباراة، سيحضرهما من العزيزية والدار البيضاء، من أحياء بعيدة، لن يأتي بلاعبيّن من منفوحة ولن يقترب من أحد اللاعبين الذين يعرفون كلاوي أو أعضاء فريقه. يريد لاعبيّن لا يعرفهما كلاوي ولا يعرف مهاراتهما.

"مصطفى هزازي ونايف وقدان أفضل من خطرا ببالي الآن"

قال ذلك لنفسه بصوتٍ مسموع ولكنه أراد التأكد أولاً من الخانات الشاغرة في فريقه بعد إكمال توزيعهم على مناطق الملعب. البلهاوان سلمان وعمران في البداية ثم الكويتيان اللذان لم

يصلا بعد. أما مثيب فهو يعرف أنه مدافع ممتاز وسيجعله في متوسط الدفاع أمام الحارس.

وصل إليهما فوجدهما مستعدين للتمرين، يرتديان ملابسهما الرياضية وأحذيتهما. رسموا في الجمعة الماضي مرمى على أحد الجدران في البراحة ووسعوا المكان أمامه ومن حوله ومهدوا الأرض وأزالوا حجارتها بأيديهم حتى استوت وباتت مناسبةً لكرة القدم.

ما إن طالعه سلمان وهو يمسك بالكرة حتى قال له: "أنت متأخر.. لو كنتَ في فريق كلاوي فلن يشركك في اللعب إلا في الشوط الثاني"

اقترب سعد منهما وابتسامته السعيدة لا تبتعد عن وجهه حتى وصل إليهما وقال: "مثيب سيلعب معنا"

"هل وافق؟" سأله عمران.

فأجابه سعد معتداً بنفسه: "أقنعته"

سلمان بتعجب: "إنه مطوّع آخر موديل" ثم متمثلاً: "مع المغنين يغني ومع المصلين يصلي"

نظر إليه عندها سعد وقال له بصوتٍ جاد: "انتبه لما تقوله يا سلمان أرجوك.. لا أريد منكما السخرية منه أو المزاح معه بأي طريقةٍ كانت، فهو إنسان غضوب ويبحث عن أي خطأ ليتراجع

عن اللعب معنا" ثم موزعاً نظراته عليهما: "أنتما تعرفان أننا لن نجد بديلاً له إذا رفض المشاركة في المباراة"

أشارا برأسيهما إيجاباً لما قاله وهو يكمل: "وأمر آخر.. لا أريد له معرفة الرهان. لو عرف فأيضاً لن يلعب"

"ما هذه الشروط الصارمة؟" قالها عمران مغتاظاً.

"لو عرف بأمر الرهان فسيقول أنه حرام ولن يلعب.. سيتهمنا بالمقامرة"

وبعد أن لاحت على وجهيهما إمارات التفهم: "وماذا نفعل الآن؟" سأل عمران.

"كما فعلنا في الأيام الماضية، سنبدأ بالهرولة على طول الشارع ونقوم بحركات الإحماء ثم نعود إلى هنا لنتمرن على التسديد والكرات العرضية"

لم يكد يتم جملته حتى رأوا مثيب قادماً من بيتهم مرتدياً ملابسه الرياضية فلم يتأخروا بعدها، راحوا يهرولون على طول الشارع ذهاباً وعودةً لأربع مرات. ثم بدأت تمارين الإحماء ترافق الهرولة. كانوا يرفعون أقدامهم معاً بتناوب ويضربون بها الأرض بتناغم. توقفوا بعدها لتمارين الاستطالة أمام البراحة فإذا بالأبكم يخرج من بيتهم ويأخذه الإعجاب بما يفعلونه. أشعّت ابتسامته على وجهه وانخرط معهم في التدريبات بعد انسحابهم لإكمالها داخل البراحة.

يحاول تقليدهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. أما عندما بدأ التسديد على المرمى، فأبعده سعد بلا تردد: "اذهب واجلس هناك" مشيراً إلى مجلسهم المعتاد.

أراد المشاركة في الكرات العرضية التي يرسلها سعد على رؤوس الثلاثة ليصيبوا بها المرمى الفارغ ولكن سعد أصرَّ على إبعاده. وبعد جولةٍ من العرضيات، وبعد أن فقد صبره وقف مجدداً بعد أن خلع حذاءه وزاحمهم أمام المرمى المرسوم على الحائط مما جعل سعد يتوقف عن إرسال الكرات إليهم.

"أبعدوا هذا الأحمق"

قالها سعد منتظراً والكرة تستقر أمامه وهم يتجمعون أمام المرمى، ورغم أن الأبكم كان يستاء مباشرةً من سعد عندما يقول له شيئاً سيئاً، إلا أنه هذه المرة لم يُبدِ تذمره بل أشار إليه من بعيد وأمسك ذقنه بيده اليمنى متوسلاً ومبرطعاً ولكن سعد لم يعره اهتماماً مما دفعه لتوسل سلمان: "برطع، برطع، قرطع"

"حسناً.. ستلعب معنا بعد قليل ولكن ليس الآن" ثم قاده سلمان إلى حيث مجلسهم وأقعده على أحد الحجارة والأبكم يتذمر ويُدير جسده بحركات مفاجئة ويبرطع بلا توقف.

الوضع لم يكن مرضياً لسعد، كل كراته التي أرسلها على رؤوسهم بإتقان لم يصيبوا بها المرمى الفارغ سوى مرة واحدة

وكانت برأس مثيب فقرر العدول عن هذا التمرين والانتقال إلى تمرين التسديد على المرمى فاقترب منهم.

عمران وسعد يقترب: "أكمل لا تتوقف"

سعد: "سنغير التمرين.. يبدو أن لا فائدة من التمريرات العرضية"

سلمان: "لا يا سعد أكمل التمرين.. التكرار يعلم الشطار"

سعد: "لا.. سنجرب غيره"

توقف سعد في المرمى ليقوم بدور الحارس وراحوا يسددون الكرات عليه، متحركة، ثابتة، حرة، قريبة، بعيدة، بأي طريقة وهو يحاول صدها. الحقيقة أنه لم يحاول إلا مع مثيب، أما الآخرَين فكانت كراتهما تطيش بعيداً ويركض الأبكم بحماس لإحضارها. بعد أن أعياه مستواهما السيء أراد المحاولة معهما في مهمة أسهل؛ في ركلات الترجيح. عد تسع خطوات ابتداءً من منتصف المرمى حتى غرز قدمه في التربة ليحدد علامةً فيها ثم وضع الكرة عليها وقال: "لنحاول في ركلات الترجيح" ثم موضحاً: "الآن واحداً تلو الآخر سددوا الكرات على المرمى" وقبل أن يعود إلى المرمى اندفع سلمان وسدد الكرة خارج الخشبات الملونة فنظر إليه سعد بغضب: "هل أنت أحمق؟ ركلة الجزاء لا تُنفذ بهذه الطريقة"

هرَشَ سلمان رأسه: "وكيف تنفذ؟"

عندها أمسك عمران الكرة ووضعها في المكان الذي حدده سعد وسددها هو الآخر قبل أن يعود سعد إلى المرمى وطاشت هي الأخرى بعيداً.

ضحك مثيب مما يحدث بينما استولى الإحباط على سعد الذي شعر بجهده يضيع هباءً.

"يا سلمان.. يا عمران.. يجب أن يكون الحارس في مرماه عند تنفيذ الركلة" ثم مثنياً: "أنتما تركلان الكرة قبل عودتي للمرمى"

"ولكنك عندما تعود إلى المرمى فستكون مستعداً وقد تصدها!"

"نعم هذا صحيح.. عنصر المباغتة لن يكون موجوداً عندها" تضامن عمران مع ما قاله سلمان.

"ولكنه القانون! هل نخترع قانوناً جديداً من أجل أن تسجلا الأهداف يا سادة؟"

"إنه قانون فاشل!"

تدخلَ عندها الأبكم بينهما وأخذ الكرة ووضعها على نقطة الجزاء وتراجع للخلف لتسديدها فإذا بعمران وسلمان يمنعانه ويقفان حائلين دون الكرة ثم يبعدانه فيقفز ويرفس مظهراً اعتراضه في مكانه قبل أن يبتعد عنهما.

اقترب عمران من الكرة على الأرض ونظر إلى سعد قائلاً: "هل أنت مستعد الآن؟"

تأهب سعد في مكانه وأجابه: "نعم"

فسدد كرته هذه المرة ولم تكن طائشة، بل كانت عشوائية. كل الكرات السابقة كانت تتجه في أسوء حالاتها نحو الجدار الذي رُسم عليه المرمى. ولكن كرة عمران هذه المرة خرجت إلى الشارع. اعتلت السيارات المتوقفة في أول البراحة وخرجت إلى الشارع. وقبل أن يسبقه الأبكم لإحضارها ركض عمران إليها وهم ينظرون إليه بتذمر.

قال مثيب: "لا فائدة يا سعد من هذين الاثنين، يجب عليك البحث عن بديلين لهما"

"لا أستطيع.. التحدي يا مثيب بين حارتنا وحارة كلاوي" أجابه وهو يتمنى إمكانية ما يقوله ولكنه لا يملك حلولاً أخرى. ثم تقدم الأبكم نحو سعد حتى توقف أمامه متوسلاً ومبرطعاً مرةً أخرى ولكن سعد لم يعره اهتماماً.

"لماذا لا تجربه؟" مشيرًا مثيب إلى الأبكم الذي راح يهزُّ رأسه عمودياً ليحث سعد على الموافقة وشاركهما سلمان: "نعم.. لا تقلل منه.. يضع سره في أضعف خلقه"

"لا يا مثيب" دون الالتفات للأطرم وسلمان: "لا فائدة منه.. فلو هاجموا مرمانا فلا يمكنه تنبيهنا لاقتراب أحدهم وتسلله لمكانٍ شاغر!"

"نعم معك حق" قالها مثيب متفهماً وهم يقفون بانتظار عمران وأعينهم تطالع السيارات التي ظهرت من بينها امرأة تتطاول بجسدها وتنظر إليهم بتطفل وعمران يجرها من الخلف وهو يشتمها ويهددها: "إلى أين؟ اذهبي إلى البيت وإلا أخبرت أمي"

"استغفر الله.. من هذه؟" علّقَ مثيب. ابتسم سلمان. حدّق الأبكم بتعجب. أما سعد فأصابه الارتباك.

توقف أمامها عمران ليمنعها بيديه من التقدم نحوهم، كان يهدد ويزبد ويرعد وهي بلا مبالاة تتطاول بجسدها وتحاول التملص منه لتنظر إليهم داخل البراحة حتى وقع بصرها على سعد فاتضحت ابتسامتها من عينيها الضيقتين. رفعت يدها بعدها مشيرةً إلى سعد الذي وقف مذهولاً فصاح مثيب على إثر ذلك: "ما هذا؟ ما قلة الأدب هذه؟" وهو ينظر إلى سعد الذي لم ينبس ببنت شفة.

"إنها خادمة أهل عمران، وهي فضولية نوعاً ما يا مثيب" قالها سلمان محاولاً صرف نظره عن الموضوع وهو يداري ضحكته.

"ولماذا تشير إلى سعد" ثم متوجهاً بسؤاله الغاضب إلى سعد: "هل تعرفها؟ هل بينكما شيء يا سعد؟"

"أعوذ بالله! لماذا تقول هذا الكلام؟ هل تتهم أخاك يا مثيب؟" أجابه محاولاً احتواء الموقف المنفلت من بين يديه. كان يخشى أن يقال شيئاً، أن ينزلق فم سلمان بفضيحةٍ لا يمكن احتواؤها،

والحديث الدائر بينها وبين عمران لم يكن واضحاً رغم أن شذراتٍ منه كانت تصل إليهم.

وبعد تمكن عمران من جرها إلى الشارع، تنفس سعد الصعداء ودخل البراحة حيدر هذه المرة. كان يحمل على عاتقه صندوقاً كرتونياً وهو يبتسم ابتسامة لم يرها سعد وسلمان على وجهه من قبل. التجهم في وجهيهما كانت عادته الدائمة لقاء ما يناله منهما ولكنه هذه المرة بدا سعيداً حتى أنهما لم يتأكدا إذا ما كان هذا الرجل هو حيدر صاحب الدكان في شارع عشرين أم أحد غيره، ولكنه كان هو!

تقدم حتى وصل إلى نقطة الجزاء دون أن يعرف مكانها، توسط حلقتهم ووضع الصندوق على الأرض وأشار إلى سعد ولم يبعد ابتسامته.

سعد كان يشعر أن ما يحدث معه مسرحية، الفتاة التي تصرخ في الشارع، والأبكم الذي يبرطع مطالباً بإشراكه في اللعب، والآن حيدر يحمل صندوقاً على عاتقه وهو يبتسم. وقبل أن يقول حيدر ما يريده، فتح الصندوق وراح يخرج منه عبوات الماء والعصير ويرميها لهم بالتناوب، لمثيب والأبكم وسلمان وسعد ولعمران الذي عاد وهو يلهث وعرقه يتصبب حتى أغرق وجهه.

حدث الرهان أمامه، لم يكن لحيدر يد فيه ولم يطلبه ولم يتوقع عاقبته. ولكن بعد تفكيره في الموضوع برأسه الهندي المليء بالحيل التجارية، رأى أن هذه الطريقة هي أفضل وسيلة لاسترداد ماله المفقود وديونه المعدومة. لن يجد طريقةً أخرى أفضل من ذلك. سيدعم سعد في مباراته، سيدفع له ما يريد ويقيّده في الدفتر على أمل أن ينتصر في المباراة على كلاوي فيدفع له كلاوي ديون سعد وسلمان السابقة وديونهما اللاحقة التي يقدمها برحابة صدرٍ الآن. إنه أمله الوحيد، أما أن يأمل ويؤمل نفسه بأحلامٍ لن تحدث ويظن أن سعد وسلمان سيسددان دينهما، فهو أمر ليس مستبعداً على أفضل الأحوال، بل إنه مستحيل. تدبر، تفكر، وأعاد حساباته ولم يجد مفراً مما قام به. ومما سيصعب عليه استيفاء ديونه هي المصيبة التي لا يريد لها الحدوث ولا يريد التفكير بها، وهي خسارة سعد وفريقه فيضيع عليه دينين وليس ديناً واحداً، دين كلاوي ودين سلمان وسعد. لن يسددا هذان المعدمان حتى لو أُلقي بهما في السجن. رأسه الهندي المليء بكل خبرات التجارة الشرقية لن يفوّت على نفسه ماله بهذه السهولة.

أصاب سعد الذهول مما يحدث، إنها خطوة جريئة يقوم بها حيدر ويمد بها يده للمصالحة. لم يفهم في البداية السبب الذي يدفعه لذلك حتى أخبره بلا تردد عما يعنيه من هذا الدعم. بل إنه

وعده بتموين الفريق حتى يوم اللقاء بالعصيرات والمشروبات الغازية والمياه دون أن يتكبد سعد عناء حملها من الدكان كما يفعل كلاوي كل يوم، بل سيحضرها له خادماً مطيعاً لمخدومٍ يتمنى ألا يخذله في مباراة الخميس.

عاد حيدر أدراجه مودعاً لهم نحو دكانه، وقف مثيب في وجه سعد متسائلاً: "هل دفعت ثمن هذه الأشياء؟" وهو يمسك بالعبوة في يده.

قال مرتبكاً: "سأدفعها له فيما بعد"

"وما الذي يجعل حيدر يفعل هذا بعد أن شكاك لوالدي؟"

سؤال منطقي من مثيب الذي بدأ يشك في الأمر، لا يمكن له البكاء أمام والده في المسجد ثم يأتي راضياً مبتسماً إلى هنا ليضيف على دين سعد ديناً جديداً!

لم يجبه سعد، بحث عن إجابة في عقله وعمران وسلمان يترصدان معه ويدركان خطورة الموقف ويحاولان انهاءه بسلام وسط نظرات مثيب المتوجسة والمنتظرة إجابة سعد. هذا الأخير كان قلقاً أيضاً من تدخلات رفيقيه، يخشى من قولهما كلاماً يظنان أنه جيداً ولكنه سيكشف لمثيب ما لا يريد له معرفته مما يزيد شكه.

"هداك الله يا مثيب.. إنه دعم لأبناء حارته" قالها سلمان فأدار مثيب وجهه: "ولماذا لا يدعم كلاوي؟"

"كلاوي بغيض.. لا أحد يحبه.. إنه معروف بمجونه ولا يتورع عن ارتكاب الحماقات" بدا ما قاله عمران أخيراً كطوق نجاةٍ لسعد الذي حاول استلام زمام الأمر قبل استطرادهما في المبررات التي لا يقتنع بها أحد سواهما: "هذا صحيح يا مثيب، سمعتَ ما قاله عمران.. أنت رجل مستقيم ولا تعرف كلاوي. أنا لا أحب الغيبة ولم أكن أريد الحديث عنه. ولكن ما دام الأمر أصبح أمامك، فلا بد من إخبارك بحقيقته"

"وما هي حقيقته؟"

قال سعد محاولاً تحفيز مخيلة الكذب في عقله: "إنه سكير.. داشر.. يتعرض للنساء في الحارة.. هذا معروف عنه. بل إنه يتعامل بالربا ولا يسدد حيدر حتى يدخله في متاهةٍ من الديون" ثم بعد ذلك: "أنا لا أحب الوشاية بالناس أو فضح سترهم ولكنه معروف في منفوحة كلها بهذه الرزايا ولم يترك فتاةٍ لم يتعرض لها"

فتح مثيب عينيه على وسعهما: "ولماذا لم تبلغوا عنه الهيئة؟" ثم مكملاً: "يجب إبلاغ الهيئة عنه حتى يكفوا أذاه عن الناس ويلقى جزاءه الشرعي"

"أوووهوه" قالها سلمان متدخلاً في الحوار: "إنهم يجلدونه كل أسبوع في ساحة الصفاة ولكن هذا لم يردعه"

"كل أسبوع!" قالها مثيب متعجباً فأجابه عمران: "وفي بعض الأوقات مرتين في الأسبوع الواحد!"

حك مثيب ذقنه لما سمعه وبدت الحيرة على وجهه.

"حسناً.. لقد انتهى تمرين اليوم" رفع بها سعد عقيرته محاولاً فض المسرحية وقلبه يجفُ مما حدث. مثيب لم يقتنع بما حوله، هناك أشياء غائبة عنه في خضم هذا التمرين الغريب. وعندما راح سعد يدفعهم للخروج من البراحة لينهي الموقف، التفت مثيب على عمران قائلاً: "وخادمتكم! ما قصتها هي الأخرى؟" عاد قلب سعد إلى الاضطراب وعمران يجيب مثيب: "إنها معتوهة. منذ مجيئها إلينا وهي تتدخل فيما لا يعنيها"

"ولكنها كانت تشير إلى سعد، رأيتها تفعل ذلك!" قالها متوقفاً بين السيارات.

"تقول إنه يشبه ولدها الذي تركته في بلدها" قالها سلمان الأحمق، أضاف شيئاً لا معقولاً لكل هذه الأحداث اللامعقولة فلم يعجب ما قاله عمران الذي أراد تفنيد ذلك ولكن أصواتهم جميعاً تداخلت:

مثيب موجهاً كلامه لسلمان: "وكيف عرفت ذلك عن خادمتهم؟"

سعد هازئاً: "سامحك الله يا سلمان، من أين تأتي بهذه الأفكار؟ هيّا بنا لنخرج من هنا" ثم راح يدفعهم ولم يجد أمامه سوى الأبكم ليتحدث إليه ويقطع أي حوارٍ يتصل بما حدث في البراحة: "كيف حالك؟ هل تريد اللعب معنا حقاً؟ علينا اختبارك أولاً لنتأكد من مهاراتك..."

ثم لم ينقطع عن قول ما لديه أو ما ليس لديه كي لا يتحدث أحد سواه والأبكم يكاد يطير من الفرح ويتقافز بينهم ويبرطع. خرجوا جميعاً من البراحة وتفرقوا. تركهم عمران إلى بيته ومشوا جماعةً حتى نهاية الشارع قبل أن يتركهم مثيب هو الآخر فآن لسعد أن يتنفس الصعداء والأبكم يقفز أمامه. المسكين صدّقَ أن سعد سيسمح له باللعب معهم. كان يبرطع أمامه بسعادة ويقفز ويدور ويسدد في الهواء بساقه ليريه مهاراته. أما هذا الأخير فكان يتابع مثيب حتى دخل باب بيتهم وأغلقه خلفه فنظر إلى سلمان قائلاً: "يا حمار.. كنتَ ستورطنا مع مثيب!"

"أنا؟!" بلا اهتمام: "وكيف حدث ذلك؟"

"أُشبه ابنها يا مريض؟ أُشبه ابنها يا مختل عقلياً؟ إنها ما زالت صغيرة ولا يمكن أن تكون في عمر أمي!" ثم ليخرجه من قناعته الكاذبة: "ثم كيف تعلم ذلك عنها؟ هل أنت من أهل عمران حتى تعرف أن لديها أبناء وأن أحد أبنائها يشبهني؟"

بدأ الآن في فهم الموقف الذي وقعوا فيه، لم يكن يدرك أن ما قاله غبي ويسبب المتاعب حتى أوضحه سعد الذي يحاول الإمساك بغيضه والأبكم ما زال يقفز أمامه مستعرضاً مهاراته فنظر إليه زاجراً: "أتعتقد أنك ستلعب معنا حقاً؟" ثم وهو يدقق فيه: "لن يحدث ذلك في أحلامك.. أغرب عن وجهي أيها الأبله قبل أن أفعل بك شيئاً لن يرضيك ولن يرضيني"

نظر إليه الأبكم بانكسار، كان موقفه عدائياً وسيئاً ولا يمكن السكوت عنه ولكنه سكت ولم ينطق بكلمة. لم يبرطع، لم يقرطع، اعتمر وجهه بعلامات الحزن وأدار له ضهره مبتعداً عن المكان.

وقف سلمان في مكانه وهو يحدّق في سعد: "لماذا تعامله بهذه الطريقة؟ إنه مسكين!" ثم نظر إلى الأبكم وهو يتجه إلى بيتهم: "تعال.. تعال" ولكن هذا الأخير أكمل سيره ولم يعد للنظر إليهم.

"لماذا فعلت ذلك؟! منذ يومين انتصرت له من أبي جابر واليوم تعامله بكل هذه الحقارة؟!"

شعر سعد بخطئه ولكنه لم يتراجع، أخذته العزة بالإثم فراح يجادل: "لقد أزعجنا وأفسد تمريننا يا سلمان. أنت السبب في كل هذا، قلت لك ألف مرة لا أريده معنا فلماذا تأتي به؟"

"لم آتِ به" قالها بهدوء ثم أكمل: "إنه يأتي إلينا كلما رآنا، كما إنها المرة الثالثة التي تسيء فيها له يا سعد!"

تسرب الهدوء إلى سعد مدركاً أن لا فائدة من رفع صوته: "لم أكن أريد ذلك ولكنه دفعني إليه. لم أكد التخلص من أسئلة مثيب وهذا يتقافز أمامي كالقرد ويُلّحُ في إشراكه معنا وهو يعلم استحالة ذلك"

توقفا بصمت لبرهة قبل أن يكمل سعد: "ثم إنك تركتني على أعصابي مع مثيب!"

"لا تبالغ يا سعد"

"بل سأبالغ معك ألف مرة! ألا تذكر ما قلته لكلاوي في الدكان عنها؟ لقد فضحتني يا سلمان!"

"عمن؟!"

"عن خادمة عمران!"

"وماذا قلت؟"

سأله بغيض: "لماذا أخبرت كلاوي عن قصة الخادمة يا أحمق؟ ألم تعدني أنك لن تخبر أحداً"

تفاجأ سلمان مما قاله سعد فراح يحك رأسه ببلاهة ويجيبه: "ولكني لم أخبره شيئاً مهماً!"

سعد: "لقد أخبرته كل شيء ولم يعد هناك ما هو مهم أو غير مهم!"

سلمان: "لا.. هذا غير صحيح"

سعد: "وما الصحيح إذاً؟"

سلمان متحدياً: "الصحيح؛ وما حدث فعلاً؛ أن الخادمة صفعت وجهك بعبوات الحليب المعدنية عندما عاكستها يا سعد.. هذا ما حدث.. وما قلته له أنها معجبة بك وهذا غير صحيح.. لقد أنقذتك من سخريته عندما قال أن لديهم معجبات من الجنس اللطيف" ثم مستدركًا: "صحيح أنها أبدت إعجابها فيك مؤخراً، ولكن الحقيقة كانت مختلفة في ذلك الوقت!"

سعد: "لست أعلم كيف تقيّمُ الأمور والمواقف يا سلمان!"

هزَّ سعد رأسه على الجانبين مما سمعه، لن يستطيع شرح الموضوع بطريقةٍ واضحة لسلمان مهما حاول. لم يعد يستطيع السيطرة على توتره والضغوطات تزداد عليه كل يوم وعندما يستعين بسلمان لا يجد منه مساعدة. أخلد للصمت متفكراً قبل تغيير الموضوع لما هو أهم: "دعنا نذهب إلى ملعب كلاوي"

"لماذا؟"

"أريد أن أرى من يلعب معه.. ربما أعرف بعضهم وأتمكن من وضع خطة مناسبة للمباراة"

لم يعارض، لم يوافق، فقط سار معه وهو يبادله الحديث.

"متى سيصلون أبناء خالتك؟"

"غداً أو ربما بعد غد"

"الله يستر"

"ما بك؟"

"هل أنت متأكد أنهم يجيدون كرة القدم؟"

"قلت لك وأعيدها الآن، إنهما يلعبان في فريق القادسية"

"وكم عمريهما؟"

"في سني"

قطعا الشوارع وهما يتحدثان، مرا بدكان حيدر فقفز هذا الأخير من خلف منضدته عندما رآهما في الشارع ووقف على باب الدكان وأشار إليهما بإبهامه بعلامة (جيد) كي يشجعهما مبتسماً. تجاوزاه بوجهين بلهاوين إلى حارة كلاوي حتى وصلا إلى الملعب. إنها المرة الأولى التي يأتي سعد فيها إلى هنا. المكان كان مكتظاً والسيارات تحيط بالملعب وهناك فعلاً نساء في النوافذ. صوت الصافرة المترددة بين الوقت والآخر تختلط مع صيحات الجماهير الصاخبة.

لم يُرد لكلاوي رؤيته فتسلل مع صديقه من خلف الجماهير حتى اتخذا لهما مكاناً قصياً وراحا يطالعان المناورة. لم يتبقَ على انتهاء التمرين سوى نصف ساعة والكرة على اسفلت الملعب كانت تدار بحرفيةٍ ماهرة بين أقدام اللاعبين. عرف سعد الكثير من المنضمين إلى فريق كلاوي، رأى هذا الأخير يتولى التحكيم ولا

يتوقف عن إرشاداته للاعبين. مضى به الوقت وسلمان يتحدث بجانبه عن أي شيء ويشير إلى أحدهم أو يضحك من أحدٍ آخر وسعد يسبح في أفكاره البعيدة عن صديقه. وقبل أذان المغرب بقليل قال سلمان: "هيّا بنا.. يجب علينا الذهاب قبل انتهاء المران.. قد يرانا كلاوي"

لم يسمعه سعد، كان يطالع المناورة باهتمام بالغ فلم يدرك ما قاله حتى أعاده: "سعد.. يا سعد" وبعد أن نظر إليه: "يجب أن نذهب الآن" ثم بعد أن رأى علامات الرعب على وجهه: "ما بك؟"

لم يجبه، لم يقل شيئاً، استشعر الآن الورطة التي أوقع نفسه فيها، لم يعتقد لوهلة أن كلاوي قادر على جمع كل هؤلاء اللاعبين المعروفين من منفوحة وخارج منفوحة، مصطفى هزازي الذي أراد دعوته للعب معه ضد كلاوي كان يلعب معهم! انقاد لصديقه لأول مرةٍ في حياته. من المعتاد أن يقرر سعد متى يذهبون ومتى يتوقفون ومع من يتحدثون ولكنه هذه المرة كان منقاداً لسلمان منصاعاً لرأيه في الرحيل دون وعيٍ لما يحدث. داخله الرعب ما إن رأى تمرينهم وخرجا من زحام الناس حتى قال بصوت سمعه سلمان: "يا إلهي! كيف ورطتُ نفسي هكذا؟!"

وقفة:

التكرار لا يعلم الشطار، كما أنه لا يعلم الحمار أيضاً، ولو كان ذلك صحيحاً لتعلم الحمار الكلام.

(٦) محترفو القادسية

لم ينم جيداً ليلة البارحة، كل إغفاءة تسربت به إلى النوم انتابه فيها حلمٌ مفزع فأعاده لليقظة غارقاً في عرقه. يشاهد كلاوي يضحك أو يمد لسانه في وجهه. يرى سلمان بائساً وعمران يبكي والأهداف تنهال على مرماهم. يرى لاعبي كلاوي يركضون في أنحاء الملعب وهم يحتفلون. بل رأى كوابيس رمزية لا معنى لها سوى ما يتعرض له من ضغط هائل بسبب هذه المباراة، كأن يصعد درجات منصة فيعرقله أحدهم ويسقط حتى يعود أدراجه من حيث بدأ الصعود والأصوات تتضاحك عليه. تجمعتْ أحلامه المفزعة في ليلةٍ واحدة، ينام، يحلم، يستيقظ فزعاً ثم يعود إلى النوم ولا يلبث أن يعاوده الحلم والفزع.

كل هذا بسبب ما رآه في ملعب كلاوي. لم يعتقد أن فريقه بهذا المستوى المتطور ولم يجد إجابةً عن الكيفية التي وصلوا بها لهذا المستوى في غضون أسابيع قليلة. كيف استطاع كلاوي جمع كل هؤلاء المهرة الذين يعرفهم جيداً وسبق له اللعب معهم أو ضدهم في بطولاتٍ ومباريات سابقة. هم أيضاً يعرفونه جيداً. لا أحد ينكر

سعد إلا مخادع أو متحامل. ولكن مهاراته لن تكون كافية، سيقف وحيداً أمامهم، أو على أفضل حال، بثلاثةٍ ممن هم قريبين من مستواه فلن يتمكنوا من الفوز على هذا الفريق الزاخر بنجوم جنوب الرياض. اليوم استيقظ من نومه واستيقظ لنفسه وأدرك تهوره، لم يعرف سبباً واضحاً دفعه لقبول هذا التحدي رغم معرفته بأن كلاوي لن يدخر جهداً في إلحاق الهزيمة به. يتذكر الموقف الذي حدث في دكان حيدر، كيف دفعه إلى قبول التحدي وخدعه باستثارة حميته وتذكية غضبه حتى أوقعه في المصيدة فلا يجد ذلك مقنعاً فيما هو مقدم عليه من فضيحة سيسخر بها كلاوي منه لأعوامٍ طويلة.

"يا إلهي!"

قالها وحك ذقنه وهو يفكر جالساً على حوض البيك آب. كل المظاهر التي رآها ستدفع أفضل لاعبي الحواري للانضمام إلى فريق النسور. هناك دعم مادي ينالونه، وهناك ترتيب وتنظيم وجدية في المران والمناورات. حتى زي التمرين الموحد من النوع الغالي والكرات التي يلعبون بها ككرات الأندية المرموقة. كيف سيكون زيهم المخصص للمباريات إذاً؟!

انحاز به تفكيره هذه المرة إلى الحيلة، فكر متسائلاً عن إمكانية سرقة أحد المرميين المتحركين من ملعب كلاوي! لن يتمكنوا من

إقامة المباراة عندها. سيأخذ سلمان وعمران ويتسللون ليلاً إلى الملعب ويحملون المرمى على البيك آب ويرمونه بين خردة الحراج أو بين استراحات حي المصانع أو في وادي حنيفة. ستكون هذه فكرة جاهزة إذا لم يعجبه مستوى فريقه.

بقي أمله الأخير في الكويتيين، إذا كانا كما قال سلمان يلعبان في نادي القادسية فهما بلا شك يجيدان اللعب بمستوى ممتاز. ولكن لا يمكن الثقة بما يقوله هذا الحمار. الكويت خرّجت الكثير من النجوم على مستوى القارة. يتذكر فيصل الغانم وهو يسجل التاريخ ويثب من على قوس الستة عشر ليضع هدفاً رائعاً برأسه في مرمى رعد حمودي في تصفيات أولمبياد ١٩٨٠م ويطير بالكويت إلى موسكو. فتحي كميل، عبدالعزيز العنبري، فيصل الدخيل، سعد الحوطي، والجوهرة جاسم يعقوب. كوكبة نجوم أسست لمدرسةٍ كروية في الكويت جعلت الشعب يعشق اللعبة. حققوا كأس آسيا ١٩٨٠م ولعبوا في كأس العالم ١٩٨٢م في إسبانيا وحصدوا الكثير من البطولات الخليجية بكافة أجيالهم المتعاقبة. كل من كان يملك حساً فنياً في كرة القدم كان يقدرهم بعيداً عن التعصب الرياضي حتى لو كان يشجع الفريق الذي يعلب ضدهم. الفن لا يعرف انتماءً، والجمال يفرض سيطرته على الحواس العاشقة له. صيحات خالد الحربان كانت تتردد في

مسامعه وهو يفكر بكل هذا فارتفعت حماسته وقال لنفسه بصوتٍ مسموع: "سأهزمك يا كلاوي شر هزيمة"

وما إن ارتفع الأدرينالين في جسده وسيطرت عليه الإثارة حتى راح يفكر في تشكيلة فريقه وخطة اللعب وتوزيع خاناتهم.

"سلمان في الحراسة" هكذا قال نفسه. كفاه الكبيرتان وذراعاه الطويلتان ومهاراته الضحلة في الملعب لن تجعل له خانةً يلعب فيها أفضل من حراسة المرمى. سيلعب هو في المحور ومثيب في متوسط الدفاع ونايف وقدان مهاجم وسعيّد مليحان وسط أيسر أو أيمن. سيكتفي الآن بهذه الخطة الابتدائية حتى وصول جاسم وخليفة من الكويت ويعرف منهما خانتيهما المفضلتين ليضعهما فيها. تمنى أنهما يستطيعان اللعب بمرونة في أكثر من خانة، سيتيح له ذلك استبدال خانتيهما مع عمران الذي يجب إبعاده عن الدفاع والمرمى بأكبر مسافةٍ ممكنة.

بدا الفريق جيداً في نظره بهذه التشكيلة. "لا بأس به" قالها لنفسه متأملاً أفقه ودوامة الأفكار تحيط برأسه.

بقي الآن ما يحتاجه ولا يعرف كيفية الوصول إليه، إنه بحاجةٍ إلى دعمٍ مادي. لن يأخذ طقماً لفريقه من أحد أصدقائه، لقد فكر بالأمر. لا يريد أن يعرف أحد لاعبي كلاوي هذا الطقم. لعب معهم في مناسبات كثيرة ويعرفهم ويعرفونه وتشاركوا العديد من

الأطقم معاً أو لعبوا ضد بعضهم بها. يريد طقماً جديداً لا يعرفه أحد كي يكون مظهر فريقه أمام خصومه مهيباً. إنها فكرة جيدة طرأت على باله ولكنها تكاد تكون مستحيلة عندما يبحث عن مصدر لهذا التمويل! سيكون سعر الزي الموحد قرابة الأربعمائة ريال! لن يقبل أحد التبرع له بهذا المبلغ ولن يجد من يدينه إياه.

أخرج زفيراً ملتهباً واستطال بجسده على حوض البيك آب ومدد يديه أمامه وهو يحاول التنفيس عن نفسه. منذ أن بدأ هذا التحدي وهو يتعرض لضغط كبير ويقاتل على كل الجبهات ليكسبه ولكن مشاعره باتت تتذبذب بين الحماس والإحباط من وقتٍ لآخر.

إنها الرابعة وما زال الوقت مبكراً. توقف في مكانه وأغلق حوض البيك آب وقرر الذهاب إلى البراحة ليجلس فيها منتظراً حلول موعد التمرين. مشى بروية متفكراً فإذا به يلاحظ جلبةً على امتداد الشارع أمام بيت عمران. كان والد هذا الأخير يقف أمام سيارته مفتوحة الباب في منتصف الشارع، يشتم ويلعن رافعاً صوته بتذمر وبجانبه عمران يتحرك بطريقةٍ مثيرةٍ للريبة قبل أن يدخل مندفعاً إلى بيتهم ويعود بعمامة والده ويعطيه إياها فيضعها هذا الأخير على كتفه ويركب سيارته وينطلق مسرعاً من أمام بيتهم. مرت سيارته بمحاذاة سعد وهذا الأخير يتعجب، تبادل النظرات بعدها من بعيد مع عمران وهذا الأخير يتجه إليه. تنبه

لسيارة جي أم سي تقف أمام بيت سلمان وعندما تأكد منها ابتسم لها. لوحتها الكويتية جعلته يقول لنفسه: "الآن اكتمل العدد" ثم رفع بصره باتجاه القادم وسأله: "ماذا يحدث يا عمران؟ هل عطل أحدهم دشكم مرةً أخرى"

أجابه وهو يتقدم نحوه: "لا.. المصيبة أكبر هذه المرة"

"ماذا حدث"

"الخادمة ابنة الكلب"

"ما بها؟!"

"هربت"

"ماذا؟"

وما إن وصل إليه حتى أكمل: "استيقظنا صباحاً فلم يرها أحد ولكننا لم نشك في الأمر. توقعنا أنها تنجز أعمالها في الفناء أو في السطح. وبعد أن تنبهت أمي لغيابها بحثت عنها ولم تجدها ثم دخلت حجرتها فلم تجد ملابسها وحقيبتها فتأكدنا من هروبها"

"وماذا سيفعل والدك؟"

"سيذهب لإبلاغ الشرطة" ثم مسترسلاً: "كان لا بد من إبلاغ الشرطة منذ الصباح ولكن عمي لم يجب على اتصالات والدي حتى عاد إلى غرفته في الفندق"

سأله سعد متعجباً: "وما دخل عمك؟"

"إنه كفيلها" ثم موضحاً: "إنها خادمتهم" قالها ولم يدرك أنه يقولها، نسي كذبته عندما ادعى أنها خادمتهم وانكشف الآن.

"ألم تقل إنها خادمتكم؟!" وسعد ينظر إليه بتأمل.

"ماذا؟" مديراً رأسه الكبيرة فيما حوله.

ثم أعاد سعد سؤاله بشيءٍ من السخرية: "ألم تقل إنها خادمتكم وأنكم أغنياء وتباهيت بها علينا؟"

تبلبل عندها ولم يعرف ما عليه قوله، لو كان سلمان معهما لأغرقه بالسخرية ولساق أمثالاً عن الكذب وحبله القصير وعن وجه الفقر الذي يستحي من الغنى وأقوالاً أخرى تقال في مثل هذا السياق.

وبعد أن طال صمته سأله سعد: "وما الذي جعل عمك يتركها عندكم؟"

"ذهبوا للعمرة"

"يا لكم من سلالة من البخلاء" ثم مستنكراً: "لماذا لم يأخذوا المسكينة معهم؟ سينالهم الأجر من رؤيتها للكعبة!"

"ليست مسلمة يا نصير الإنسانية!" قالها متمايلًا برأسه في كل اتجاه إلا الاتجاه الذي يقف فيه سعد. أخجله كذبه، بل أخجلته بلادة عقله التي لم تتدارك كذبته. انزلق لسانه بما لم يتوقعه فانكشف كل ما كان يصطنعه ثم قال ليوقف اندفاع سعد خلف

السخرية منه: "ماذا بك؟ هل اشتقت إليها؟" ابتسامته ظهرت على طرف فمه فتحوّل الغيض منه إلى سعد الذي بادره متسائلاً: "ولماذا أشتاق إليها؟"

"هيّا يا سعد.. أتعتقد أني لا أعرف؟!"

سعد يعرف هذه الجملة، سمعها في وقتٍ سابق من سلمان ويعرف أن عمران يعني بها الآن ما عناها سلمان يومها. كما أنه يعرف سلمان جيداً، لم يكن يوماً جديراً بالثقة. لن يحفظ سراً ولن يكتم خبراً وسيخبر كل من يلتقيه ليكتسب أهميةً مدعية وهو يقول له: "أريد أن أقول لك شيئًا" ثم عندما ينتهي من إفشاء سره: "ولكن لا تخبر أحدًا، هنا حفرنا هنا دفنا" حتى أصبح العالم مليئاً بالحفر التي يدفنها سلمان ويترك السر خارجها فيعرفه كل من يمر به.

وجه سعد الطويل كان محمراً وكل هذا يجول في خاطره. لم يكد يسعد بتخلصه من الخادمة حتى اتضح له أن كل أسراره يعرفها الجميع ابتداءً من حارة كلاوي إلى حارتهم وهو الوحيد الذي يعرف عنه الناس أكثر مما يعرف عن نفسه. لو كان سلمان أمامه الآن لربما أوسعه ضرباً. لن ينسى فضيحته مع كلاوي، إنها أم الفضائح وأهم من أي فضيحةٍ أخرى وإخباره لعمران لا يعد شيئًا. ولكنه يخشى أن يخبر سلمان الأبكم، ثم الكويتيين، ثم مثيب إذا توطدت علاقته معه في التمرين اليومي، وهذه الفكرة الأخيرة جعلته

يرتعب. لن يغامر بخسارة مثيب، أما لو أخبره بعد المباراة فهذا غير مهم، يريد فقط أن تمر هذه الأيام بسلام حتى تنتهي المباراة.

"عمران" وبعد أن استرعى انتباهه: "يجب أن تتبرع للفريق فأنت الوحيد الذي يملك المال"

أصابه الارتباك مما سمعه ولكنه لم يتهرب من الموضوع هذه المرة: "يا سعد أنتم تعتقدون أني أملك خزائن قارون" ثم بعد أن تأفف أعاد وجهه إليه: "حسناً، سأدفع ما أستطيع، كم تريد؟"

"لا أريد ما تستطيع.. أريد قرابة الأربعمائة ريال لشراء زي موحد للفريق"

"ماذا؟" أجابه بعينين مفتوحتين: "ومن أين لي هذا المبلغ؟!" ثم لائذاً بحلول سعد التي أخبرهم بها في وقت سابق: "ألم تقل إنك ستستعير طقماً من أحد أصدقائك؟"

"نعم، ولكن الأمر لم يعد مناسباً الآن، لقد عدلت عن الأمر. فنصف الذين يلعبون في فريق كلاوي يعرفونني وأعرفهم وبيننا أصدقاء مشتركين وقد أحضر طقماً فيعلمون مصدره. يجب أن يكون لنا زي جديد لا يعرفه أحد"

"وماذا في ذلك؟" محاولًا الفرار من المأزق: "المهم أن نحصل على زي موحد حتى لو كان ممزقاً!"

سمعا صوت بابٍ وهما يقفان في مكانهما فأدارا رأسيهما فإذا بسلمان يخرج من بيتهم وتلتقي نظراتهم فيقول: "ما شاء الله.. الشباب يجتمعون باكراً اليوم" وتقدم نحوهما وسعد يكمل حديثه لعمران: "العامل النفسي مهم يا عمران، سنشتري طقماً جديداً وجميلاً لنُدخل الرهبة في نفوس الخصوم ونرفع حماس لاعبينا.. عليك مساعدتنا في ذلك"

"من أين يا سعد؟ من أين؟ أنت تطلب مبلغاً كبيراً. قد أتبرع بخمسة ريالات، عشرة، أو ربما أتبرع بخمسين ريالاً. أما أربعمائة! فمن أين لي هذا المبلغ؟!"

تدخلَ سلمان في الحوار: "لماذا تريد هذا المبلغ يا سعد؟"

"لنشتري طقماً جديداً للمباراة، يجب أن يكون مظهرنا مهيباً أمام كلاوي وفريقه" ثم نظر إلى عمران بسخرية: "خمسة ريالات! وهل سأشتري بها فول سوداني؟!" ثم أكمل: "حاول يا عمران من أجل حارتنا، ابحث في بيتكم عن أنبوبة غاز لا تحتاجونها، أو ربما والدك أو والدتك يساعدوننا" غمز بعينه محاولاً تشجيعه ولكن هذا الأخير كان حاسماً: "لن أتمكن من مفاتحتهم بالأمر، فكلهم مشغولون بهروب الخادمة ولن يعيرني أحد اهتمامه"

عندها أجابه سعد بسرعة: "هذا إذاً أفضل وقت لذلك، سيكونون كلهم مشغولين عندما تفعلها" وأعاد غمزته مرةً أخرى مشيراً إلى السرقة.

"هل هربت خادمتكم؟" سأله سلمان.

"نعم" ثم أتبع: "الحقيرة"

"كنتُ أعرف أنها لن تبقى طويلاً" علّق سلمان ثم عاد إلى سعد وهو يحك رأسه: "سعد.. قد أجد طريقةً تساعدنا"

نظر إليه سعد: "هل ستدفع أربعمائة ريال؟"

سلمان: "أنا؟! من أين لي هذا المبلغ؟" ثم مكملاً: " قالوا انفخ يا شريم قال ما من برطم"

سعد: "ولماذا تسأل إذاً؟"

سلمان: "طرأت على بالي فكرة"

سعد: "ما هي؟!"

سلمان: "دعني أتأكد منها أولاً ثم أخبرك"

نظر إليه سعد بتأمل، هجس بما يمكن له فعله دون إيقاعهم بمصيبة جديدة. نظر إليه من الأعلى إلى الأسفل، ثم توقف في الأسفل ولم يصعد إلى الأعلى. أوقف بصره متأملاً نصفه الأسفل قائلاً: "ما هذا؟" مشيراً إلى سروالٍ قطني يرتديه سلمان فأجابه هذا الأخير متسائلاً: "ما رأيك؟ ألا أبدو لاعباً محترفاً بالشورت؟"

لم يرفع بصره عن نصفه الأسفل وهو يقول له: "هذا ليس شورت"

"ما هو إذاً؟" سأله هازئاً فأجابه سعد: "هذا سروالك الداخلي! وقطني أيضاً! هل ستلعب معنا بسروالك الداخلي؟"

"وكيف عرفت؟" هرَشَ رأسه وهو يفكر. لم يكن يعتقد أن أحداً سيكتشف ما يرتديه. يرى اللاعبين على التلفاز يرتدون سراويل قصيرة (شورتات) غالبًا ما تكون بيضاء ويظن أنها نفس السراويل الداخلية التي يرتديها تحت ثيابه أو أنها تشبهها ولن يلاحظ أحد الفرق.

وكي لا يأخذ الموقف أكبر من حجمه قال سعد: "اذهب إلى بيتكم وغيّر سروالك الداخلي هذا وأحضر الكرة كي نتمرن" ثم بعد أن تذكر: "هل وصل الكويتيان؟"

أجابه متبسماً: "نعم.. وصلوا البارحة.. قلت لهما أن يبدلا ملابسهما ويلحقا بي" ثم مستوقفاً سعد: "ولكن لحظة، ألم تأخذ الكرة بالأمس؟"

"أنا؟!" أجابه متسائلاً ثم هزَّ رأسه نافياً فنظر سلمان إلى عمران: "ولا أنت؟"

"وهل ستتركني آخذها.. إنك تستحوذ على كل شيء"

وقبل أن يستغرق عمران في تذمره من معاملة سلمان له، سقطت عليهم الكرة في الشارع، جاءت من السماء دون أن يعرفوا من أين أتت وارتطمت بالأرض ثم عادت تقفز من حولهم حتى تدحرجت بين السيارات. فُتح باب أبي جابر بعدها وخرج أبناؤه منه متزاحمين ومتسابقين وراحوا يستطلعون الشارع قبل أن يروها ويركضون باتجاهها.

"تعال.. تعال" هتف سلمان فيهم وسبقهم إلى الكرة وأمسك بها وطالعهم بنظرةٍ حانقة: "من أين أتيتم بهذه الكرة؟"

توقفوا بعيدًا عنه في منتصف طريقهم، تبادلوا النظرات فيما بينهم بخوف ثم عادوا هاربين إلى منزلهم.

"أنظر" قالها سلمان وهو يقترب من سعد وعمران ويمد الكرة أمامه: "إنها كرتنا، كيف حصلوا عليها أبناء الشيطان؟!"

ثم بعد ذلك بقليل خرج أبو جابر من منزله وصرخ فيهم: "أعيدوا كرة أبنائي.. لماذا تأخذونها منهم؟!"

نظروا إلى بعضهم بتعجب ثم بادره سعد: "هذه الكرة؟!" مشيراً بتساؤله إليها في يد سلمان.

"وهل هناك غيرها؟ أعدها إليّ"

"ماذا؟" صرخ سلمان: "هذه كرتنا يا لص.. كيف سرقتها أنت وأبناؤك؟" وتقدم نحوه فإذا بالرجل يصيبه الهلع ويتراجع إلى الخلف وسلمان يعلو صوته في وجهه: "هيّا أخبرني.. كيف سرقتموها؟"

قال أبو جابر بخوف: "لا تتهور يا سلمان، لا داعي لذلك"

انطلق سعد ممسكاً بسلمان ليهدئه: "لا تندفع يا أبله، لا تورطنا في مشاكل مع هذا الحقير"

وبعد أن حجزه عنه قال أبو جابر: "اسمع كلام صديقك يا سلمان. أنا لا أريد المشاكل"

تدخلَ عمران: "نحن نعرف كرتنا جيداً، هذه الكرة لنا. لماذا تدعي أنها لكم؟ بل قل لنا الآن كيف حصلتم عليها؟"

وصل مثيب في ذلك الوقت إليهم: "ماذا هناك؟ ما الذي يحدث؟"

"هذا اللص سرق كرتنا هو وأبناؤه ويدعون أنها كرتهم!"

نظر مثيب إلى أبي جابر وسلمان يكمل ما يقوله: "أعتقد أن أبناءه قفزوا إلى داخل بيتنا وسرقوها"

"لا يا سلمان. خاف الله. لا يمكن أن نفعل ذلك. نحن لسنا لصوصاً" بمسكنته المعتادة حاول أبو جابر تبرئة أبنائه ونفسه.

عمران: "أنظر إلى الكرة يا مثيب، أنت رجل متدين ولا تخشى في الله لومة لائم، أليست كرتنا التي تمرنا بها بالأمس؟"

أمسك مثيب الكرة مفكراً: "نعم بالتأكيد.. إنها هي"

نظر عندها سعد إلى أبي جابر: "إذاً كيف وصلت إليك؟ هذا رجل متدين ولن يشهد زوراً"

بات موقف أبي جابر مهزوزاً ولم يعد إلى الثقة بنفسه وهم يتجمهرون عليه ويشعرون أن الفرصة باتت مواتية للانتقام منه منذ حادثة هاتف الأبكم.

قال سلمان: "هيّا أخبرنا من أين أتيت بها؟ إنها كرة أديداس ولن تستطيع الحصول على ثمنها حتى لو بعت أحد أبنائك!"

"حسناً.. لا تغضبوا مني هكذا.. أعتقد أن أبنائي وجدوها في الشارع! هذا كل ما في الأمر"

"آهااا" قالها عمران: "الآن بدأت تعود إلى ألاعيبك القديمة وكأن الأمر لا يتعدى شيئاً بسيطاً حدث لنا معاً وجمعنا فيه سوء تفاهم غير مقصود"

قال أبو جابر ببراءة مصطنعة: "وماذا أفعل إذا كان هذا حظي معكم؟!"

"يا ابن الكلب" قالها سلمان وهو يتهجم عليه وسعد يحاول الإمساك به: "لا يا سلمان يكفي هذا"

ثم راح يبعده إلى داخل البراحة ويأخذ معه عمران كي لا يتركه خلفه فيحدث منه ما حاول منع سلمان من الإقدام عليه.

أعصابهم أتلفها برود هذا اللص، إنه يسرقهم ويتذرع بخزينة الثقة التي تمكن من توثيقها في أنفس أهالي الحارة ويستخدمها في تقوية حجته. هكذا بكل بساطة يريد الاستيلاء على كرتهم وهم ينظرون.

سعد لم يكن أكثرهم تعقلاً، بل ربما كان أكثرهم رغبةً في طرحه أرضاً وإعادة جلده كما حدث أمام الشرطي، خصوصاً أن الفرصة لاحت له مواتية هذه المرة ولن يشهد أحد على اعتدائهم عليه. ولكن المباراة بعد غدٍ، وهو لا يريد التركيز على شيءٍ غيرها.

وبعد أن سيطر على الموقف وسحب صديقيه إلى البراحة، ظلَّ مثيب يتفاهم مع أبي جابر: "ما هذا يا رجل؟ أنت أب ويجب أن تكون قدوةً لأبنائك وليس تعليمهم السرقة"

أبو جابر مستحضراً مسكنته: "صدقني يا مثيب لم أكن أعرف أنها لهم، كنتُ أعتقد أنهم يريدون سرقتها من أبنائي، هؤلاء الصغار الضعاف. أنت تعرف ما حدث بيني وبينهم في السابق، لقد اعتدوا عليّ أمام بيتي. ضربوني أمام زوجتي وأبنائي"

لم يكن مثيب على درايةٍ بخسة الرجل، يراه يصلي معهم في المسجد رغم أنه لم يبدأ ذلك إلا بعد حادثة الهاتف وتظهر عليه إمارات الاستقامة كإطلاقه للحيته وتقصيره لثوبه دون أن يعرف أنه

يفعل ذلك بخلاً وليس تديناً. فهو لا يذهب للحلاق إلا في الأعياد ويقصر ثوبه ليساوم الخياط على ثمنه.

مثيب: "لا يا أبا جابر! ما قمت به غير مقبول أبداً وأنت رجل عليك إمارات الصلاح. إنهم متوترون وليسوا في حالةٍ تسمح لهم بهذا الاستفزاز من قبلك"

طالعه أبو جابر متطفلاً: "ولماذا هم متوترون؟ هل حدث شيء في الحارة"

"لدينا مباراة مهمة مع حارةٍ مجاورة بعد غدٍ" يجيبه مثيب ببراءة: "وأنت أتيت الآن تسلبهم كرتهم التي يتدربون بها لهذه المباراة"

"وأين يتدربون؟"

"هنا.. في البراحة" مشيراً إليها خلف السيارات المتوقفة في أولها.

حك أبو جابر ذقنه وهو يتفكر ثم قال: "أنا آسف يا مثيب. أنت رجل عاقل ولست كأخيك سعد. سامحني. لا أريد أن أقول هذا الكلام عن أخيك ولكنه شاب متهور ولا يحترم شيبتي" ثم محاولاً استلانة جانبه: "ولكن من أجلك سأقدم اعتذاري لهم، بل إني سأكفر عن ذنبي معهم بطريقةٍ تعجبهم"

"وكيف ستفعل ذلك؟" أعجبه ما بدر منه فراح يفاوضه.

"أنا على استعداد لتشجيعكم في المباراة"

نظر إليه مثيب متعجباً وقال: "ستشجعنا!"

"نعم.. سأحضر أنا وأبنائي تمارينكم كل يوم وسنذهب معكم إلى المباراة" ثم متسائلاً: "أين ستقام المباراة؟"

"في الحارة المجاورة" قالها مثيب بسعادة.

"حسناً، سأكون يوم الخميس هنا بعد صلاة العصر وسأذهب معكم أنا وأبنائي.. أنتم بحاجةٍ إلى الدعم فأنتم تمثلون حارتنا"

هزَّ رأسه بعينين مشعتين والابتسامة الصفراء تملأ وجهه ففرح بها مثيب واتجه معه إلى البراحة وأعلن عند وصولهما: "يا شباب.. أبو جابر يريد الاعتذار عما بدر منه" فنظروا جميعاً إلى مثيب ثم إلى أبي جابر الذي كان يقف بعيداً عند مقدمات السيارات على استحياء. "إنه يريد التكفير عن ذنبه بحقكم، وكبادرةٍ طيبة منه سيحضر المباراة ليشجعنا في ملعب كلاوي"

أراد عمران رفض ما قاله مثيب، أيضاً سلمان أراد شجبه وطرده من البراحة ورفض هذا الدعم المبتذل الذي يقدمه لهم ولكنهما توقفا عن كل شيءٍ متعجبين مما يسمعانه وطالعا سعد الذي لم يول ما يحدث أهمية لأن جاسم وخليفة دخلا من خلف مثيب وأبي جابر فراح سعد يتمايل متطلعاً إليهما بلهفة.

نظرته الأولى عليهما لم تعجبه، لم يكن مظهرهما يعكس ما قاله سلمان، بل إن أحدهما كان منتفخاً كعمران وتعلو وجهه بلاهة لا متناهية. أما الآخر فربما توسم فيه بعض المهارات.

قفز عندها سلمان باتجاههما مرحباً: "أهلاً.. تعالا إلى هنا.. تعالا" وما إن اقتربا: "هذا سعد، كابتن الفريق" ثم مديراً وجهه إلى هذا الأخير: "هذا خليفة وهذا جاسم" مشيراً إليهما بتتابع: "لقد أخبرتهما عنك وعن أهمية المباراة وهما مستعدان لها وسيقدمان مستوياتٍ رائعة ستتشهد بها ساحات منفوحة طوال العمر"

تبادل سعد معهما التحية وهو يشك فيما قاله أخيراً، قصر قامتيهما ليست الدليل فقط على ادعائه، بل إن سمنة جاسم جعلته يشك في انضمامه إلى فريق القادسية وانسحب ما اعتقده على ادعاءات سلمان كاملةً مما دفعه للشك في خليفة نتيجةً لشكه في جاسم.

"أهلاً بكما في السعودية" سعد مرحباً بهما: "قال لي سلمان أنكما تلعبان في القادسية"

"هذا صحيح" أجاباه بما يعني ذلك.

سلمان بينه وبينهما مبتسماً: "ألم أقل لك؟!"

"أخشى أن لياقتكما ليست كما يجب، فالدوري متوقف في الكويت أليس كذلك؟"

نظرا إلى بعضهما بتعجب وأجابه جاسم السمين: "نعم هذا الصحيح.. الدوري متوقف ولكن لياقتنا جيدة"

"وما هي الخانة التي تحب اللعب فيها يا جاسم؟"

"الحقيقة أني لا أهتم كثيراً بالخانة، فأنا ألعب في أي مكان حسب حاجة المدرب"

أعجبه رده فأدار وجهه إلى خليفة: "وأنت؟"

"أنا أيضاً مثله" وقبل أن يعتقد سعد أنهما نزلا عليه رحمةً وغيثاً من السماء لأنه بإمكانهما اللعب في أي خانة، أكمل خليفة: "نحن أساساً لا نهتم كثيراً بخانات كرة القدم"

أثارت جملته الأخيرة تعجب سعد الحذر وحاول تفهم الموقف قائلاً: "هل كرة القدم عندكم جماعية؟ ألا تحددون لكل لاعبٍ خانةً يلعب فيها؟" ثم موضحاً لأنه ظن أن اختلاف اللهجات لم يوضح ما يعنيه: "دفاع.. هجوم.. ظهير أيسر.. وسط أيمن.. حارس!"

خطر على باله أن كرة القدم متطورة في الكويت إلى درجة لا يفهمونها في السعودية، ظن أنهم يلعبون هناك لعباً جماعياً حديثاً لا يعرفه، فالكل يشارك في كل الخانات ويغطون بعضهم بلا مركزية.

"بلى" أجابه جاسم: "أعتقد ذلك.. إنهم يوزعون الخانات في فريق القدم قبل بداية اللعب"

أيضاً بدت إجابته غريبة على سعد ولم يفهم ما يعنيه تحديداً فسأله بشكلٍ أكثر وضوحاً: "حسناً، هذا ما أعنيه، وما هي إذاً خانة كل واحدٍ منكما، أين تفضل اللعب يا جاسم وأين تفضل اللعب يا خليفة؟"

"في أي خانة.. قلت لك يا معوّد.. هاه!" بدا جاسم متذمراً من إعادة نفس السؤال فأجابه بلهجةٍ كويتية متذمرة ولكن سعد ما زال مصمماً على فهم ما يحدث: "اسمع مني، مدرب القادسية، أين يضعك؟ في أي خانة؟" أعاد سؤاله بطريقةٍ أخرى ليكون أكثر وضوحاً فأجابه خليفة: "نحن لا نلعب كرة القدم في القادسية!"

سقطت عليه كصاعقة فاندفع بسؤالٍ جديد نحوهما: "ماذا تلعبان إذاً؟"

"خليفة يشارك في مسابقات الدراجات الهوائية وأنا أشارك في المصارعة الرومانية"

صرخ سعد: "ماذ؟!"

"ألم تفهم حتى الآن؟" جاسم وهو يتأمل وجه سعد ثم محدثاً سلمان قبل أن يبتعد عنهما: "يبدو أن صديقك الطنطل يعاني من مشكلةٍ في الفهم" ثم يشارك خليفة: "الطول طول نخلة والعقل عقل صخلة"

سعد لم يسمع ما قالاه عنه، لم يهتم بسخريتهما منه وقفزت الصدمة تتكهرب من أسفل قدميه حتى انتصبت بجسده وانتفخت في نهايتها برأسه. استطال جسده فجأة وهو متحجر في مكانه وعيناه الجاحظتان تبحثان من حوله عن سلمان الذي راح يتحدث إلى عمران محاولاً درأ وقيعته بسعد عندما شعر أن اختلاف الألعاب لم يعجبه. شعر سعد أن كل المصائب التي تحدث له ليست بسبب الأبكم، ولا بسبب حظه الرديء، ولا لأي سبب آخر غير هذا المتخلف العقلي الذي يصادقه ويصاحبه منذ بداية يومه حتى نهايته. إنه جلاب للكوارث وبؤرة للفساد والتلاعب. يسبب له الفضائح ويدفعه إلى المشاكل ولا يستطيع أن يفهمه أو يُفهمه ما يريد مما يسبب بعداً جغرافياً بين عقليهما رغم التصاق جسديهما طوال السنين الماضية. ولكن الأمر بات الآن في الواجهة، لن يسعفه الوقت، لم يعد لديه مفر مما يحدث ولا يمكن له أن يجد لاعبين آخرين أو يتفاوض مع كلاوي حول ذلك. مصارعة رومانية! دراجات هوائية! لن يستطيع حتى إدخال هذه المشكلة في عقل سلمان حتى لو شرحها له بورقةٍ وقلم فلم يجد بيده سوى السكوت ومحاولة كتم غيضه وخوض المباراة بهما.

"هيّا.. لقد تأخرنا عن موعد التمرين" قطع مثيب سحابة الصمت والهدوء المضطرب في تجمعهم وسعد يُخرسه غيضٌ من

لهبٍ بركاني يعتمل بصدره. هزَّ رأسه متوعداً سلمان وهو ينظر إليه فأشاح هذا الأخير ببصره بعيداً كأن لم يفعل شيئاً وبدأوا جميعاً الهرولة على طول الشارع. يهرول معهم بصمت ويقوم بتمارين الإحماء ولا يهمه ما يحدث من عبثٍ وضحك وسخريةٍ من عمران أو سلمان بحركاتهما البلهاء. كان مغيباً عنهم، يعيد ترتيب أوراق عقله التي بعثرتها ريح الحقيقة القادمة من الكويت. يلوم نفسه لأنه وثق بسلمان، ثم يعود إلى فكرته التي هجس بها والتي يمكن لها أن تجعل إقامة المباراة مستحيلة.

بعد دورتهم الثانية على امتداد الشارع، وصل حيدر ووضع صندوقه المليء بقناني العصائر والماء في منتصف البراحة فهرعوا إليه قبل انتهائهم من التمرين. كان يشير إليهم بقبضته وإبهامه إلى الأعلى بمعنى (جيد) ويضحك محاولاً مع آخر آماله الممكنة زرع الروح البطولية فيهم قبل عودته إلى دكانه.

ركضوا نحو الصندوق الكرتوني وتناولوا منه ما استطاعوا ودلقوا محتوياته في بطونهم ثم بدأوا بعد ذلك ركل الكرة باتجاه المرمى المرسوم على الحائط في البراحة.

تابع سعد تحركات الأخوين القدساويين ولكنه لم يجد فيهما شيئاً يثير الاهتمام. لا يمكن وصفهما بأنهما أفضل من عمران. كانا

يعبثان ويركلان الكرة ولا يجيدان إلا إحضارها من الشارع عندما تخرج إليه.

أبو جابر اصطف مع أبنائه أمام السيارات لتشجيعهم قبل أن يرسل أبناءه واحداً تلو الآخر ليسرقوا من الصندوق بعض عبوات العصائر في غفلةٍ منهم. دخل الأبكم عندها البراحة، مر بمحاذاة أبي جابر ونظر إليه بغضب ثم توجه إلى مجلس الطوب وجلس على إحداها ولم يبرطع بشيء.

"ها قد اكتمل مجلس التفاهة" قالها سعد وهو يستشعر مصيبته ثم ذهب للجلوس بجانب الأبكم، تركهم يتراكلون الكرة هناك بدونه وجلس بجانبه ولم ينظر إليه. ظلَّ يطالع سلمان بسرواله القطني ويتحسب عليه، يتأمل ما يحدث أمامه من تهريجٍ جماعي لا يمت لكرة القدم بصلة. يراجع صداقته لكلبٍ وحمار كما لو كان يعيش في حديقة حيوانات. لم يتحرك من مكانه حتى بعد انتهائهم من لهوهم، تفرقوا إلى بيوتهم عدا عمران وسلمان اللذين اقتربا منه وجلسا بجانبه متسائلين: "ما بك؟"

لم يجبهما، ظلَّ معلقاً مع أفكاره وهو ينظر أمامه دون أن يعيرهما أهميةً.

"لماذا لم تشارك معنا في التمرين؟" قالها سلمان فنظر إليه: "اسمعا مني.. هذه المباراة لا يجب أن تقام"

"ماذا؟!" قالاها معاً بصدمة وتداخلت جملهما بعد ذلك:

"كيف تقول هذا؟"

"هل ستنسحب؟!"

"وكل تدريباتنا الماضية؟!"

"لم يتبقَ سوى يوم واحد!"

"وثمن الرهان، كيف سندفع الرهان؟!"

"هل ستجعلنا أضحوكة أمام كلاوي؟!"

أصواتهم الفزعة علت في فضاء البراحة وهو يلتزم الصمت قبل أن يستفزه السؤال الأخير.

"بل إذا لعبناها سنجعل من أنفسنا أضحوكة" ثم عندما استمعا إليه: "فريقنا مشوه، لا يمكن أن ندخل به رهاناً كهذا. سنخسر المباراة في الشوط الأول وسيلج مرمانا أهداف بلا عدد"

"عدنا إلى التشكيك في قدراتنا!" قالها سلمان وأيده عمران بسرعة: "لماذا هذه الروح الانهزامية يا سعد؟"

أكمل سلمان: "لا تثق بنا نحن، ثق بأبناء خالتي! وباللاعبيّن اللذين ستحضرهما للمشاركة معنا"

أجابه وهو ينظر إليه بحقد: "أبناء خالتك هاه؟ اللذان قالا بلسانيهما أنهما لا يلعبان كرة القدم؟!" وكي لا يضيع وقتاً في جدلٍ لن يصل منه إلى طائلٍ: "أما بالنسبة للذين سأحضرهما فلن يكونا

كافيين" ثم مديراً نظره في فضاء البراحة: "وحتى لو أحضرت يوسف الثنيان وماجد عبدالله فلن يكونا كافيين للفوز على فريق كلاوي المنظم"

عمران: "منظم! منذ متى وأنت تنعت فريقه بهذه الكلمة؟"

سعد: "منذ أن رأيته! لقد ذهبنا إلى هناك أنا وسلمان ورأيتهم. لن أخدعكم أو أخدع نفسي، فريقه قوي ويجب الاعتراف بذلك، أما نحن فلسنا سوى جماعة من المدعين الممتلئين بالترهات والذين يعتقدون أنهم سيحصلون على الفوز بالقوة"

سلمان: "لا تكن متخاذلاً يا سعد، فريقنا قوي وسنفوز بالمباراة"

سعد: "بل فريقنا هزيل ولن نسجل هدفاً واحداً.. سيكون جيداً إذا وصلنا إلى خط المنتصف" ثم معترفاً بخيبته: "أرأيت كيف يتعامل لاعبو كلاوي مع تمرينهم؟ إنهم محترفون، يأخذونه على محمل الجد أما نحن فنضحك ونتهافت على التفاهات وقبل قليل تركتم التمرين لتشربوا عصائر حيدر" ثم وهو ينظر إلى سلمان: "وأنت بالذات لا يحق لك الكلام بعد فعلتك الأخيرة"

"وماذا فعلت الآن؟" قالها سلمان فأجابه عمران مبتسماً: "لقد أخبرته أني أعرف قصة الخادمة" ثم استغرق في ضحكه.

نظر سعد إلى عمران وقال: "وأنا سأخبره أنها ليست خادمتكم"

أخرسه سعد فتهاوى في كذبته التي ساقها عليهما وسلمان ينظر إلى عمران: "يا كلب.. وتدعي أنكم أغنياء و.."

قاطعه سعد: "ألا ترون؟ ها أنتم تنسون رهاننا مع كلاوي وتُغرقون أنفسكم بالسخرية مع أي حدثٍ عارض" ثم بصوتٍ قاطع: "هذه المباراة يجب إلغاؤها بأي طريقة. لن نلعبها مهما كلّفَ الأمر" وبعد أن دار الصمت بينهما لثوانٍ: "اسمعا مني.. غداً.. في وقتٍ متأخر من الليل سنذهب إلى ملعب كلاوي ونسرق أحد المرميين" ثم أكمل وهما لا يصدّقان ما يسمعانه: "سنحمله على البيك آب ونرمي به في حي المصانع وسنحضر إلى الملعب في اليوم التالي كأننا لا نعرف شيئاً وسنتهمه أنه من افتعل هذه المشكلة حتى لا تُقام المباراة" ثم مكملاً: "لن نفعلها اليوم، سنفعلها غداً كي لا يكون لديهم وقت ليصنعوا مرمى جديد. سنحمله تبعات هذه الترتيبات السيئة وسنسخر من إعداداته لفريقه وسنحاول الحصول منه على قيمة الرهان، وإذا لم نستطع سنعود إلى حارتنا بسلام" ثم منهياً كلامه: "وهكذا لا خسارة ستلحق بنا ولا فضيحة ستنالنا وسنتخلص من هذا الأمر"

"أنت تمزح.. قل إنك تمزح" قالها سلمان والحزن والخيبة تتزاحمان على وجهه. شعر برغبةٍ عارمةٍ في البكاء فخبأ رأسه بين

يديه وعمران يعلّق: "لن نفعل ما تقوله، سنلعب المباراة وستلعبها معنا وسنهزم هذا القذر أمام أهل حارته"

رفع سلمان رأسه: "أقسم لك أننا سنكون جديين وأهلاً للثقة منذ الآن"

شاركه عمران: "سنلعب بكل قوتنا يا سعد، لن نخذلك وسنقدم كل إمكانياتنا في هذه المباراة حتى نفوز بها"

لزم الصمت وهما يتناوبانه بوعودهما، يبحث عن ثغرةٍ صغيرة تدفعه لإكمال الرهان حتى آخره ولكن الحلول تُغلق كل طرقها في وجهه.

وقفة:

التراجع في اللحظات الأولى أو الأخيرة يظل تراجعاً، الإقدام فقط هو صفة الأبطال.

(٧) اليوم الأخير قبل المواجهة

ما إن انتهت صلاة العصر في المسجد والتفت والد سعد في تسليمته الثانية عن يساره، حتى رأى شليّل يصلي بجانبه. بادله التحية إيماءً وشرع في أذكاره. فرد كفيّه على فخذيه وراح يقبض أصابعه واحداً تلو الآخر في تسبيحه وتحميده وتكبيره. أطال فيها ولكن شليّل لم يتحرك، ظلَّ جالساً حتى تأكد أنه انتهى فأمسك يده اليسرى المسندة على فخذه برفق وقال: "أبو سعد، هل يمكن لي التحدث معك؟"

تبسم مجيباً: "على الرحب والسعة يا شليّل"

"لا أريد أخذ الكثير من وقتك. ورغم أن الأمر محرج بالنسبة لي، إلا أنه أصبح ملحاً في الأيام الأخيرة ولا بد من إيجاد حلٍ له" ثم أتبع: "ويشهد الله أني أعدك كوالدي"

هجس والد سعد بعد مقدمة شليّل بما يريد الحديث فيه: "خير يا شليّل؟"

"سعد يا أبا سعد، لقد تجاوز كل الحدود ولم يعد يوقر كبيراً ولا يرحم صغيراً وأذاه يطال كل سكان الحارة وفي كل مرة تحدث

مشكلة تتجه أنظار الناس إليه" وبعد أن تبدلت ملامح أبي سعد: "أنت رجل خيّر، صالح، كل الأهالي يشهدون لك برفعة المقام والأخلاق الحميدة وأنا أولهم، فأنا جارك منذ سنين طويلة. وكما ترددتُ وخجلتُ من التحدث إليك في موضوعه، فالناس أيضاً يخجلون منك ويؤثرون الصمت متحاملين على أنفسهم احتراماً لك"

"ما الذي فعله يا شليّل؟ أخبرني ولا تتردد" باضطراب وخلجات وجهه تنبئ عما بداخله.

تمايل شليّل في مكانه ثم عاد إليه: "في ظهيرة الجمعة الماضي كنتُ في منزلي يا أبا سعد فإذا بالحجارة تنهال عليه من كل مكان. خرجت إلى الشارع مستطلعاً الأمر فوجدته مع صديقيه عمران وسلمان وسيماء الارتباك تفضح خطيئتهم. كسروا زجاج النافذة وروعوا عيالي وعرضوهم للخطر ولست أعلم لماذا فعلوا ذلك!"

نظر إليه بتعجب ونطق محرجاً بفمٍ جاف: "هل أنت متأكد أنهم من فعلوا ذلك؟"

قال شليّل باستياء: "لا يا أبا سعد، لم أكن أتوقع أنك ستحاول التبرير فأنت تعرف ابنك أكثر مني" قالها بخيبة ثم عاد للإجابة على سؤاله: "وإذا ما كنتُ متأكداً أنهم من فعلوا ذلك؟ فنعم، كما أن الأمر لا يحتاج إلى تأكيد، فلم يكن أحد سواهم في الشارع. ولو

كان هناك غيرهم في الشارع لرأيته، ولو أنه هرب لأخبروني عنه كي يبرئوا أنفسهم" ثم ليزيد الأمر وضوحاً: "يا أبا سعد.. سعد وصديقاه معروفون في الحارة كلها بسطوتهم، ولا أحد يتجرأ على المكوث في الشارع بوجودهم، أي شخص يراهم فيه سيؤثر النجاة ويتوخى السلامة ويفر بجلده قبل تعرضهم له، فكيف سيتجرأ أحد بالتسلي ورمي الحجارة على بيتي وهم يقفون في الشارع؟!"

حاول أبو سعد إيضاح موقفه: "لا تفهمني يا شليّل بطريقةٍ خاطئة، ولكني افترضت حدوث سوء فهم فقط"

"وكيف سيحدث سوء الفهم يا أبا سعد؟" ثم مثنياً: "كما أن الأمر لم يتوقف على هذا"

"وماذا حدث أيضاً؟"

"عندما سألتهم عن سبب رميهم لمنزلي بالحجارة سخروا مني! تهكموا عليّ ولم يخجلوا من جيرتنا وقالوا لي أشياء بلهاء لا يمكن أن يصدقها صبي غرير"

"ماذا قالوا لك؟"

"قالوا إنهم شاهدوا صبيةً يرمون الشجرة بالحجارة ليسقطوا النبق!" ثم أدار وجهه محدّقاً في وجه أبي سعد: "هل يعقل هذا يا أبا سعد؟ نبق ونحن في منتصف الصيف!" وبعد أن ترك الصمت يمر بينهما: "استولى عليّ الغضب منهم ولم أعرف ما يجب فعله.

تمالكت نفسي في اللحظات الأخيرة حتى لا أشتبك مع هؤلاء المراهقين في عراكٍ لا تُحمد عقباه. ثم فكرتُ بإبلاغ الشرطة ولكني تراجعت. أنا أجلّك وأقدرك يا أبا سعد، وأخجل من هذه الشيبة ولا أريد أن أقف خصيماً لك أمام القانون أو أن أكون سبباً في إحراجك أو دخولك مركز الشرطة" أمسك بعدها لحية أبي سعد وأعاد يده إلى فمه ليقبل أطراف أصابعه ويكمل: "دخيل شيبتك يا أبا سعد.. يجب أن توقفه عند حده. الحارة لم تعد تتحمله ولا تتحمل صديقيه اللذين يعرف الناس جميعاً أنهما يسمعان ما يقول وينفذان ما يطلب. أنت تعرفني، لا أريد مشاكل مع أحد فكيف بابن جاري الوقور" وبعد أن أبعد وجهه إلى الخلف وبعينين مفتوحتين: "كما أني لا أعتقد أني سأتمكن من السيطرة على نفسي بعد اليوم، وإذا ما أخطأ بحقي مرةً أخرى فقد يقع مني ما لن يرضيك أو يرضيه ويضعني في موقفٍ محرج معك"

نزَّ العرق من جبين الرجل المتغضن، اكفهر وجهه ولم يستطع مجاملة شليّل بالابتسام له وهو ينسحب مستأذناً. لم ير في مجلسه سوى صورة سعد أمامه، صورة المراهق الماجن المتهتك عديم الأخلاق الذي لم يحسن تربيته ولم يسلم أحد من أذاه.

* * *

تجمع الفريق وجمهوره بعد الصلاة مباشرةً. بكروا في خروجهم من منازلهم معتقدين أن هناك استعدادات فريدة من نوعها لمباراة الغد. أرسل أبو جابر أبناءه إلى دكان حيدر لإبلاغه بضرورة إحضار العصائر والماء مبكراً فلم يتأخر هذا المسكين، توجه بها على الفور إليهم حتى وضعها أمامهم في الشارع وعاد إلى دكانه.

كان الشك يساور سلمان وعمران بسبب ما قاله سعد بعد مران الأمس. لا يريدان منه التراجع عن المباراة فكانا يتوجسان ويتفرسان في وجهه وهو يتقدم إليهما محاولين معرفة ما ينوي عليه. وقبل وصوله إليهما، أشار له سلمان وهو يتقدم: "سعد.. تعال.. أريد التحدث معك على انفراد" كان يبتسم وهو ينظر إليه وما إن وقف أمامه بترقب: "ماذا هناك يا سلمان؟"

"تعال" وقاده إلى داخل البراحة منتحياً به عنهم وتركهم في الشارع، وبعد أن تأكد من انشغالهم عنهما، أخرج من جيبه كومةً من المال ومدها إليه: "خذ.. هذه ستكون كافية لشراء زي الفريق"

كانت كومةً من فئات الريالات والخمسات والعشرات المجعدة والمهلهلة وبعضها ممزق، ينظر إليها سعد وهو يمسكها بارتباك: "ما هذا يا سلمان؟"

"ألم أقل لك أني أستطيع إحضار المال الذي طلبته؟" ثم فخوراً بنفسه: "ها أنا أفي بوعدي"

"من أين لك هذا؟"

"لا يهم.. المهم ألا تتراجع عن المباراة"

"كم هذه؟"

"سبعمائة وثمانية وعشرون ريالاً"

"هل أنت متأكد؟"

هزَّ رأسه إيجاباً: "بالتأكيد.. عددتها ثلاث مرات" ثم متسائلاً: "أليست كافية؟"

"بلى. إنها كافية" ثم أتبع: "بل هي أكثر مما نحتاجه"

رفع بصره إلى سلمان متعجباً، إنها نادرة من نوادره، لم يف يوماً بوعدٍ قطعه، ولم يعول على ما قاله كثيراً عندما كان يطلب من عمران أن يجد لهم مالاً.

أطلَّ عمران عليهما وقال بطريقةٍ غريبة: "سعد.. هل يمكنني التحدث إليك؟"

أشار إليه بالتقدم وهو يحشر المال في جيبه وعندما وصل إليهما أخرج ثلاث ورقات من فئة المائة ريال ووضعها في يد سعد: "أنا آسف يا صديقي.. هذا ما استطعت جمعه من والديّ، أتمنى أن يكون كافياً"

لم يصدّقَ سعد ما يحدث، إنها أمور مفاجئة تحل في لحظات مشاكله التي انقبض عليها صدره خلال الأيام الماضية ولم يجد لها مخرجاً مما جعل إدراكه مختلاً. إنهما يقاتلان من أجل هذه المباراة التي لا يريد أن يلعبها ويقدمان كل ما يستطيعان وما لا يستطيعان ليدفعاه نحوها. سيكون وضيعاً إذا تخلا عنهما الآن من أجل سخرية كلاوي. لم يشعر في يومٍ سابق بما يشعر به اليوم، صداقتهم الصبيانية لم تبعث هذه الحميمية الجارفة والعاطفة الجياشة بداخله كما تفعل الآن. ما فعلاه في موقفهما هذا نبش أعماقه وزرع محبتهما في داخله كشجر الغاف، كالنخيل، كأي شجرة تمد جذورها في الأعماق مستعدةً للانطلاق نحو عنان السماء بلا حدود تقف عندها.

عاد الثلاثة إلى الشارع ومشاعر وفاءٍ جياشة تتلاطم بصدر سعد وهو يتشبث بكتمانها. تقدم نحو الفريق المصطف أمامه بعد انضمام عمران وسلمان إليهم وقال: "لن نجهد أنفسنا اليوم بالتمارين، لن نتدرب على المرمى وسنكتفي بالهرولة ثم تعودون إلى بيوتكم ويجب عليكم ألا ترهقوا أنفسكم حتى الغد وتناموا جيداً"

"وماذا عن نايف وسعيّد؟" سأله مثيب فأجابه بلا تأخر: "سنلتقيهما في الملعب غداً عند الرابعة"

"ولكنك لم توزع خانات الفريق!" سأله سلمان فأجابه متبسماً: "ستكون أنت الحارس"

"أنا؟!" تعجب متسائلاً.

"نعم.. فأنت الوحيد الذي يملك إمكانيات الحراسة" ودون أن يخبره عن كون هذه الإمكانيات لا تتجاوز يديه الطويلتين: "ما رأيك؟"

"لا بأس، المهم أن نفوز على هذا الوغد" بل لا بأس لأن سعد لن يتراجع عن الرهان، هذا ما يجب عليه قوله.

أكمل سعد: "مثيب في متوسط الدفاع، ظهير أيمن خليفة، ظهير أيسر جاسم، أنا في المحور، وسط أيمن عمران، سعيّد مليحان وسط أيسر، ونايف مهاجماً"

وزعهم بشكلٍ متوازن في الملعب، هذا ما خطط له في عقله واستقر عليه. سيشارك في تغطية المنطقة دفاعياً وسيصنع اللعب أيضاً مع المتقدمين قبل أن يسلّم لنايف وسعيّد منطقة المبادرة الهجومية، فهو يعول عليهما كثيراً في تسجيل الأهداف.

قفز الأبكم عندها بوجهٍ متعجب وراح يبرطع بصوتٍ يرتفع تدريجياً حتى تحولت برطعاته إلى صراخ. قال أشياء كثيرة شاجباً ومستنكراً ولكنهم لم يفهموا منه شيئاً ثم نظر سعد إلى سلمان الذي

رفع للأبكم يده اليمنى وخفضها بشكلٍ عمودي وهو يجمع أصابعه مشيراً إلى استمهاله ولكن سعد لم يفهم ما يحدث.

"سأشجعكم حتى النهاية" قالها أبو جابر: "حتى لو خسرتم بعشرة سأشجعكم" ثم مد يده إلى صندوق العصائر وراح يوزعها على أبنائه من حوله.

"فال الله ولا فالك" سلمان وهو ينظر إليه بازدراء ثم مثنياً: "قل خيراً أو اصمت"

سأل مثيب: "وماذا عن طقم الفريق؟ هل هو جاهز؟"

ابتسم عندها سعد: "سأحضره الليلة" ثم منقلاً نظراته بإعجاب بينهم ومركزاً إياها على سلمان وعمران المبتسمين: "سترتدون أفضل طقم عرفتموه في حياتكم"

انبث الحماس بينهم، ارتفعت وتيرته في نفوسهم وانطلقوا في هرولة جادة على طول الشارع والأبكم يجتهد معهم وأبو جابر وأبناءه يشفطون العبوات واحدةً تلو الأخرى ويصفّقون لهم ما إن يمروا بهم عائدين من أول الشارع أو من آخره حتى وجد سعد ما قاموا به كافياً فأمرهم بالتوقف.

"يكفي هذا، يجب المحافظة على طاقتنا ليوم الغد"

تلفت جاسم من حوله قبل أن ينظر إلى سعد ويقول: "هذا كل شيء؟ أليس هناك تمرين آخر؟" ثم سانده خليفة: "أشعر بالنشاط.. دعونا نكمل!"

أجابهما سعد: "لا.. يجب ألا نجهد أنفسنا.. سنكتفي بهذا القدر" وليحفزهما: "وإذا كنتما تشعران بالطاقة فوفراها لمباراة الغد، نريد أن نرى مجهودكما فيها"

"جاسم.. خليفة.. نحن نعقد عليكما أمالاً كبيرة في هذه المباراة. أرجوكما لا تسمحا لكلاوي بالسخرية منا، إنه يظن أن فريقه أفضل فريق في المملكة برمتها" قالها سلمان مظهراً اهتمامه وهو يختلس النظر إلى سعد كي يدرك موقفه الجاد والجدير بالثقة.

"الميدان يا حميدان.. نحن لها يا سلمان" قالها جاسم ثم تضامن معه خليفة: "وكلاوي هذا سنرى غداً ما لديه" ثم معقباً: "اللي في القدر يطلعه الملاس"

سعد كان ينظر إليهم بتعجب والابتسامة تتنامى على شفتيه، ينظر إلى سلمان وجاسم وخليفة ويستمع إلى حواراتهم ويهجس بأنهم عائلة من الحكماء الذين لا يكفون عن ترديد الأمثال دون أن يكون بينهم حكيم واحد!

كان عمران يقف أمام جاسم وخليفة ويطالعهما بترقب وهو يعقد يده على ذقنه بانشداه دون التفوه بكلمة. سأله سلمان: "لماذا تطالعهما بهذه الطريقة؟"

هزَّ رأسه منتبهاً لما قاله ومعتذراً عنه: "أنا آسف.. سامحني.. ولكنها المرة الأولى التي ألتقي فيها أحداً من الكويت"

سلمان: "وماذا في ذلك؟"

عمران: "إنه أمر غريب بالنسبة لي!"

سلمان: وما الغريب فيه؟"

عمران: "كلامهم.. كلامهم يبدو غريباً ولا أستطيع السيطرة على نفسي عندما يتحدثان" ثم وهو يحك رأسه: "أشعر أني في مسلسل درب الزلق عندما يتحدثان"

ضج الضحك من أفواههم وخليفة يعلّق عليه: "ماذا يقول (بوتمبة) هذا؟"

عاد الأبكم لبرطعاته بغضب، توقف أمام سلمان وراح يضرب بقدمه الأرض ويصيح في وجهه فأخذه جانباً وراح يتحدث إليه بهمس.

تابعهما سعد وهو يحاول صرف الأفكار التي تخطر بباله، لا يريد أن يعتقد ما يعتقده ولا أن يصدّقَ تبريراته العقلية لما يحدث من الأبكم ولكنها تلح على عقله المُتعب. لم تعد تهمه الخسارة، ما

يهمه الآن هو الصداقة، الذين خاضا معه كل مشاكله ورُميا معه في السجن ووقفا معه حتى الرمق الأخير في كل موقف عموماً وفي هذا الرهان على وجهٍ خاص. يريد إكمال المشوار معهما حتى ينتهي إلى سعادةٍ لا متناهية، سعادةٍ تتحقق بانتصار فريقه على فريق كلاوي رغم أنه يشك في ذلك.

"سأذهب اليوم لشراء طقم الفريق أنا وسلمان وعمران" أعلن عليهم ذلك وأكمل: "أريد أن يخبرني كل واحدٍ منكم ما هو الرقم الذي يحب أن أضعه على قميصه"

أراد تدليلهم، يفتح لهم ذراعيه على وسعهما بحفاوةٍ طاغية، يريد رفع حماسهم على إثر السعادة التي شعر بها والاستسلام المسيطر عليه مهما كانت نتيجته. يريد إشراكهم في أمور الفريق حتى يستشعرون المسؤولية ويبذلون قصارى جهودهم في مباراة الغد.

"أنا أريد رقم أربعة" قالها مثيب.

عمران: "اثنان وعشرون"

"لا يا عمران، هذا الرقم لحارس المرمى" قالها سعد فحك عمران رأسه متفكراً: "وهل هناك أرقام للحراس وأخرى للاعبين؟"

هزَّ سعد رأسه على الجانبين مدركاً ثقافة عمران الضعيفة بكرة القدم وقال: "وهناك أيضاً أرقام مخصصة للدفاع وأخرى للوسط وأخرى للهجوم"

"وما هي أرقام لاعبي الوسط؟"

"ثمانية.. ستة.. عشرة.. خمسة عشر"

"خمسة عشر.. سأختار خمسة عشر" ثم معقباً ومتمايلاً في مكانه بتباهي: "كيوسف الثنيان"

سلمان: "بما أني الحارس فأريد رقم واحد"

سعد: "نعم، إنه يليق بك"

الأبكم هو الآخر فتح كفيّه بأصابعه كلها مشيراً إلى الرقم عشرة ولكن سعد لم يعره اهتماماً ونظر إلى الأخوين: "وأنتما؟"

"لا يهم.. أي رقم سيفي بالغرض" قالها جاسم وخليفة يهزُّ رأسه موافقاً ولكن سعد أصرَّ عليهما: "لن أقبل بذلك. يجب أن يختار كل واحد منكما رقماً يتفاءل به"

"نحن لا نؤمن إلا بالاجتهاد، الأرقام أشياء شكلية لا أهمية لها"

"أبداً لن أقبل هذا، كما أني سأضع اسم كل واحدٍ من الفريق على قميصه لتأخذوها تذكاراً بعد المباراة" وبينما كانت الأصوات تتداخل بسعادة لهذا الخبر الأخير أعاد طلبه: "هيّا أخبراني.. ليختر كل منكما رقماً"

"قلت لك لا يهم" ثم مستاءً جاسم مما يحدث: "هل تريد أن نعيد حوارنا الغبي عن الخانات بالأمس مرةً أخرى؟!" ثم متهكماً: "لقد ظننتك غبياً حينها"

ضحكوا جميعاً على ما قاله، تذكروا ما حدث مع سعد بالأمس ونظراته التي كانت تفضح غضبه وخديعته وخيبته. ولكنه اليوم يبدو على النقيض، كان بالأمس متشنجاً ويخاصم نفسه ولكنه اليوم يبدو متفائلاً ومتحفزاً ولا مبالياً بما قد يحدث.

لم ينتظروا بعد ذلك، تفرق جمعهم واستقل الثلاثة سيارة البيك آب واتجهوا إلى شارع الستين بالملز. راحوا يجوبون المحلات الرياضية بحثاً عن زيٍ يناسبهم، زيٍ يليق بمباراةٍ تاريخية في حواري منفوحة. لم يذهبوا للمحلات التي تبيع البضائع المقلدة أو الرخيصة، لديهم ما يحتاجونه من مال فأصبح هدفهم الماركات العالمية كنايك وأديداس وبوما. كانوا يدخلون المحلات بثقة ويصرخون في البائعين الذين ينظرون إلى مظهرهم وسيارتهم المتوقفة على أبواب المحلات ولا يعيرونهم أهميةً ولكنهم يصرون عليهم. قال أحدهم لسلمان: "أعذرني.. فأشكالكم في الحقيقة ليست لرياضيين" وعندما سأله سلمان متعجباً عما توحي به أشكالهم أجابه: "قطاع طرق، مهربون، لصوص، خريجوا سجون.. أي شيء آخر عدا أن تكونوا رياضيين"

بالطبع سلمان لم يسكت، قفز فوق المنضدة وتطاول ليمسك به ولكن صديقيه تمكنا من السيطرة عليه وأخرجاه معهما إلى محلٍ آخر.

أعجبهم طقم أياكس الهولندي، كان صرعةً في ذلك الزمن بخطه الأحمر العريض من المنتصف وشعاره الجديد لمقاتل ملتحي يرتدي قلنسوة معدنية. تناقشوا أيضاً حول طقم يوفنتوس الإيطالي ولكن سلمان قال إنه عندما يرتديه سيبدو كالحمار الوحشي وسيكون اسماً على مسمى فعدلوا عنه. لم يتعجلوا في اختيارهم، أرادوا ترك خياراتهم مفتوحة وتريثوا ليتأكدوا من باقي المحلات.

الأسعار كانت باهظة، سيكلّفهم القميص الواحد مع طباعة الاسم والرقم قرابة السبعين ريالاً، تزيد أو تنقص بعشرة ريالات. أما قميص الحارس فهو أغلى من ذلك بكثير، يصل ثمنه إلى مئتي ريال في بعض الحالات لأنها مبطنة من الداخل وأكمامها طويلة ولكن سعد لن يبخل بها على سلمان الذي أعاد له ثقته وانتشله من براثن التقهقر ووضعه على قمة الانتشاء والتمسك بالحظوظ الإعجازية.

جابوا محلات الشارع واحداً تلو الآخر وقرروا العودة لطقم أياكس واستقر رأيهم عليه. اشتروا من نفس المحل زي الحارس وأخبروا صاحب المحل بالأرقام التي يريدونها فراح يطبعها على ظهور القمصان. سجل سعد على ورقة قائمة بالأرقام تحاذيها الأسماء بتهجئةٍ انجليزية وأعطاها لصاحب المحل ولم يتركه، ظلَّ

يتابع عمله ويتأكد منه بدقة وإذا بسلمان يقترب منه ويهمس بجانب أذنه: "سعد.. أريد أن أطلب منك شيئاً"

كان يقف بجواره بمظهرٍ يوحي بالمسكنة وسعد منشغل مع صاحب المحل: "ما بك؟"

سلمان: "المال الذي أحضرته إليك"

استدار سعد نحوه: "ماذا عنه؟"

"أحضره الأطرم"

"ماذا؟" سعد متفاجئاً.

"نعم"

تفكر سعد عندها وهو يسأله: "ومن أين له هذا المبلغ؟"

"أنا طلبت منه ذلك" ثم متجهاً إلى الموضوع الحقيقي الذي أراد التحدث فيه: "لقد وعدته أنك ستدخله الفريق معنا"

أجابه بغيظ: "ولماذا فعلت ذلك؟!" ثم مستجدياً حلمه: "أنت تعلم أن هذا مستحيل! لقد تناقشنا في الموضوع أكثر من مرة! إنه لا يستطيع لعب كرة القدم يا سلمان.. ألا تفهم؟!"

"أرجوك يا سعد، لا تشركه معنا في المباراة.. أبقه احتياطياً. لقد قام الفتى بالتضحية من أجلنا وأحضر لنا المال عندما احتجناه" ثم ختم حديثه: "أرجوك.. ليكن احتياطياً"

"آهااا" كأنما يستوعب سعد الأمر للتو: "الآن فهمت ما كان يحدث بينكما في الحارة. كان حانقاً ويتحدث إليك بغضب" قالها بلا تذمر أو غضب أو ريبة أو أي شيء مما أعتاد مقابلة سلمان به عندما يفتح موضوع الأبكم. ثم أدار وجهه إلى صاحب المحل: "أضف قميصاً ثامناً وضع عليه رقم عشرة" ثم عاد إلى سلمان مبتسماً ومتناسياً ما فعله: "ولكن ما هو اسمه لنطبعه فوق الرقم؟"

لم يصدّقَ سلمان ما سمعه، كاد يقفز من الفرح وأجابه وهو يضحك: "لا يهم، أكتبه بالانجليزية هكذا: الأترم"

"اسمع يا سعد" جاء صوت عمران من بعيد وهو يدقق في الشورتات الموجودة في زاوية المحل: "اشتر لهذا الحمار شورتاً كي لا يأتي غداً بسرواله القطني.. سيفضحنا أمام كلاوي"

"يا كلب، أتهزأ بي؟" ثم مثنياً: "فوّتُ لك الأمر عندما سخرت من جاسم وخليفة في الحارة ولكنك لن تتهذب حتى أجلدك فتعرف بعدها كيف تزن كلامك قبل التفوه به"

"إنه محق يا سلمان.. يجب أن تعدني ألا تلعب بسروالك القطني غداً وإلا ألغيت قميص الأطرم" إنها المرة الأولى التي يتضامن سعد فيها مع عمران.

تخاذل سلمان وعاد ساخراً مما يحدث، أنهى الموقف بوعودٍ وأيمان مكررة ألا يلبس سرواله القطني في المباراة: "أقسم لك ألا ألعب بسروالي القطني"

في طريق عودتهم لم يكن سعد ليهدأ، يترنح بفكرةٍ تلح على عقله وهو يهجس بها. ما طلبه سلمان من إشراك الأبكم وطباعة قميصٍ له جعله يتعثر بفكرته ودفعت شكه للتدحرج ككرة من ثلج ولكنه لم يستطيع تقبلها وهو يهزُّ رأسه بين الفينة والأخرى محاولاً رفضها. وبعد أن تغلب فضوله عليه ولم يستطع التملص منه، توجه إلى سلمان بشكلٍ مباشر: "هناك أمر يجب أن تكون صريحاً معي فيه يا سلمان"

سلمان: "بكل تأكيد"

سعد بلا مناورات: "من أين جاء الأطرم بالمال؟"

ضحك عندها سلمان قائلاً: "دع الطابق مستور"

سعد: "لا.. لن أدعه" ثم محاولاً معه: "هيّا أخبرني.. أريد أن أعرف"

سلمان: "ستغضب إذا أخبرتك!"

سعد: "لا.. لن يحدث هذا"

سلمان: "أتعدني؟"

سعد: "أعدك"

نظر سلمان إلى وجه سعد ليتأكد ولكن ملامح هذا الأخير لم تعجبه فقال متراجعاً: "لا.. لن أخبرك. سوف تغضب.. أنا أعرفك"

سعد: "يا سلمان صدقني لن أغضب.. فقط أخبرني"

أعاد سلمان النظر إليه وهو خلف المقود وقال بثقة: "في الحقيقة لن يكون لغضبك أهمية الآن ولهذا سأخبرك"

سعد: "حسناً.. أخبرني"

قال سلمان وعمران يحشر رأسه بينهما من المقعد الخلفي: "أخذت ورقةً وكتبت فيها أن حاملها رجل مسلم ضاقت عليه الدنيا ودفعته الحاجة إلى الوقوف على أبواب أهل الخير، وأن هذه شهادة من إمام مسجد حارتهم بحالته ووضعه متأملين في اخوانه المسلمين مساعدته. ثم دمغتها بتوقيع وبصمة إبهامي في نهايتها وكتبت اسم إمام مسجدنا ثم أنزلته على باب جامع أم إبراهيم بخنشليلة..."

أصابت القشعريرة سعد مع كلمات سلمان الأولى، ارتجف قبل أن يصل إلى نهاية كلامه وتوقف عقله ما إن تأكد مما ساوره عن مصدر المال وبات حقيقةً الآن. لم يعد لاسترسال سلمان الذي لم يتوقف أي أهمية.

"ربع ساعة وربك.. ربع ساعة والناس يتزاحمون عليه وهو يفترش الأرض ويلقون في حجره الفئات المختلفة وأنا لا أصدّقَ ما

أشاهده. كان أمراً عجيباً يا رجل! طلبت منه أن يرتدي ثوباً قديماً وعمامةً مهترئة، وأن يرفع صوته لهم كي يعرفوا أنه أطرم. إنه موهبة يا رجل! لقد قلت لك هذا من قبل، يستطيع أن يجعلنا أغنياء ولكنك لم تصدقني. تخيل لو أننا أرسلناه كل يوم إلى الجامع" ثم متراجعاً: "ليس كل يوم، بل مرةً في الأسبوع، في صلاة الجمعة، إذا كان ما حصلنا عليه من صلاة ظهر يوم الأربعاء سبعمائة ريال، فكم سنجني من ورائه في صلاة الجمعة؟! ثروة يا رجل! ستكون ثروة!"

عمران في الخلف غرق في الضحك: "سلمان يا حمار.. جعلت المسكين يستجدي يا أحمق؟!" وقبل أن يسيطر على ضحكه: "إنها فكرة عبقرية! من أين أتيت بها؟"

"منذ أن سكن الأطرم في حارتنا" أجابه سلمان: "أخبرت سعد بفكرتي ولكنه رفضها وحرمنا من التمتع بها"

عمران: "وماذا فعلت أثناء جلوسه على باب الجامع؟"

"وقفتُ بعيداً" ثم بثقة: "كنتُ أراقبه لأتأكد أنه لن يتعرض للأذى، وأيضاً لأتأكد أنه لن يسرق شيئاً من المال" ثم أدار وجهه إلى سعد: "قلت لك قبل هذا.. إنها خطة محكمة ولكنك لم تصدقني. رحت تتذرع مذعوراً بمكافحة التسول وتفلسفت علينا بلغة الإشارة التي لا أعرف مدى حقيقتها حتى أرعبتني وجعلتني أتراجع"

سعد لم ينطق بحرف، لم يعد بيده ما يفعله، بات الأمر في طي الماضي ولكنه لا يريد لسلمان أن يكرره: "عدني يا سلمان ألا تعود إلى ذلك؟"

"وهل أنا مجنون؟!" قالها ثم أكمل: "هذا كنز هبط عليّ من السماء ولن أفرط فيه. إذا كنتَ لا تريد مشاركتي فهذا شأنك!"

كادت عينا سعد أن تخرجا من محجريهما وهو يتمسك بالمقود بكل قوته: "يا حمار سيسجنونك، وإذا كنتَ نفذت بجلدك هذه المرة فلن يتهيأ لك ذلك في المرات القادمة"

"أقول لك سبعمائة ريال يومياً! سبعمائة ريال يا سعد!" ثم بلا اهتمام: "وعندما تكتشف الحكومة الأمر فلن يكون مهماً أن أسجن بعدها، سأكون غنياً في ذلك الوقت وسأسجن على أقل تقدير لقاء أمر يستحق المغامرة" ثم مديراً وجهه إلى سعد: "ولن أسجن من أجل أسلاك هاتف!"

ضج ضحكهم عندها معاً، كان واثقاً مما يقول ولن يتمكن أحد من ثنيه عما يريده. رياح المساء الصيفية القادمة من نوافذ البيك آب المشرعة على آخرها تلفح وجوهم في انزلاقهم على الشوارع التي يقطعونها عائدين إلى منفوحة والارتياح يتوغل في صدورهم حتى استوطن فيها وكأنهم يثقون بفوزهم غداً. عادت إليهم أرواحهم المرحة بعد أسبوعين كاملين من الضغط النفسي والمشاكل التي

دارت رحاها على رؤوسهم حتى كادت تطحنها. لم يتمكنوا من تجاوز مشكلة خلال الأسبوعين المنصرمين حتى تداركتهم في عقبها مشكلة جديدة؛ حادث سيارة المهندس رأفت، قطع الأسلاك وسجنهم، دين حيدر الذي لم يسددوه حتى اليوم، ثم هذا التحدي الذي تورطوا فيه وما نتج عنه من تبعات وما تكلّفوه في سبيله من عقبات.

وصلوا حارتهم بعد صلاة العشاء والتقوا الجميع هناك. وزع سعد عليهم قمصانهم واحداً تلو الآخر. الأبكم لم تسعه سعادته، لم يصدّقَ أنه يمسك قميصه بيديه وهو يضعه على صدره ثم يبعده عنه لينظر إليه أو ينظر إلى رقمه واسمه المطبوعين على ظهر القميص. نظر بتعجبٍ في بادئ الأمر لاسمه الغريب، وبعد أن فهم ما تعنيه الكتابة (AL ATRAM) ضحك غير آبهٍ بما فعلوه وقال له سلمان: "اسمع.. سنضعك احتياطياً، لا يمكن أن تشارك معنا في أول يوم تنضم فيه للفريق"

لم يُبدِ تذمره، لم يفسد ما قاله سلمان سعادته، ورغم أن هذا الأخير كان حذراً في إخباره بموافقة سعد على ضمه للفريق وساق بعض المبررات ليكون ما يقوله مقنعاً للأبكم، إلا أن مجرد رؤية قميص مخصص له ومشاركته احتياطياً جعلته أكثر سعادةً وتفهماً وهو يهزُّ رأسه ويتقافز على الأسفلت بلا توقف.

قال مثيب لسعد وهو يعطيه قميصه: "لقد تأخرتم!" ثم نظر إليه بنظرةٍ ذات دلالة.

"نعم" ثم مكملاً سعد: "احترنا بين الأطقم المعروضة، لم نكن نريد اختيار أي طقم"

قال مثيب: "ولكن أبي يسأل عنك من قبل مغيب الشمس"

"ماذا يريد؟" سأله سعد بلا اهتمام فأجابه مثيب: "لا أعلم ولكنه يبدو غاضباً"

شعر سعد أن أمراً سيئاً قد حدث، أبوه لا يطلبه إلا نادراً ولا يسأل عنه كثيراً. كما أن وجه مثيب لم يكن على ما يرام، وتفوهه أمام رفاقه هكذا مبعداً خصوصية العائلة جعلت القلق يتسرب إليه مما دفعه للانتهاء منهم سريعاً والعودة إلى منزلهم.

دخل الصالة ومثيب خلفه، حاول سعد في طريقهما إلى البيت فهم أي شيءٍ من مثيب ولكن هذا الأخير لم يكن مفيداً لأنه لا يعرف شيئاً. وجد والده يقتعد مجلسه أمام التلفاز ولم يكد يرفع بصره حتى رآه يدخل فبادره دون أن يجيب تحيته: "شرفت؟"

وقبل أن يبدي سعد تعجبه أو ينطق بشيء سأله: "منذ متى وأنت خارج البيت؟"

"لماذا يا أبي هل هناك شيء؟"

"لا تجب على سؤالي بسؤالٍ يا ولد" صوته المحتد أظهر غضباً لم يعرفه سعد من الده.

"منذ العصر يا أبي"

"وما الذي تفعله في الشوارع؟" وقبل أن يجيبه: "هل ترتاح فيها أكثر من البيت؟ هل تحب زمرتك الفاسدة وتشعر معهم بالسعادة أكثر من أهلك؟"

لم يدرك سعد سبب هذا الغضب الذي قُبل به، لم يسبق لوالده التعرض لعمران وسلمان بالسباب أو السخرية.

"ليس كذلك يا أبي، ولكني أفعل ذلك يومياً ولم تطلب مني مسبقاً المكوث في البيت"

"وهل أنا بحاجةٍ لطلب مكوثك في البيت يا صاحب الجلالة؟"

"وهل سأفهم ما تريده دون أن تطلبه؟"

"أتجادلني يا قليل الأدب؟" ارتفع صوته أكثر مما كان عليه ثم وقع الصمت بينهما حتى نظر إليه وقال: "أريد أن أسألك سؤالاً واحداً وأقسم لك إن لم تجبني عليه بصِدق سوف ترى مني وجهاً آخر" وقبل أن يذعن بإجابته: "هل رميتم بيت شليّل بالحجارة الجمعة الماضي أنت وسلمان وعمران؟"

أوقعه السؤال في مأزق، جاءه مباغتاً في وقتٍ لم يكن يريد له أن يحدث فيه شيءٌ كهذا ولكنه يحدث الآن ووالده يطلبه بإلحاح: "لماذا تسكت؟ أجبني يا ولد"

جاء صوت سعد متوسلاً: "أقسم لك يا أبي أني لم أرمِ حجراً واحداً.. سلمان وعمران هما من فعلا ذلك ونهيتهما عنه ولكنهما لم يستمعا لي"

"كذاب" ثم منفجراً بغضبه: "إنهما لا يخرجان عن رأيك" وبعد أن طالع وجهه: "الرجل قال لي أنكم سخرتم منه بعد فعلتكم القبيحة. ألا تخجل من نفسك؟ لم تترك مصيبةً لم تفعلها بسكان الحارة حتى لطخت سمعتي بالتراب. المسكين حيدر جاء من أقصى الدنيا ليعيل أولاده وأنت وزمرتك السافلة تسرقون تجارته" ثم نظر إليه بغضب: "قل لي الآن؛ ألم تسدد دينك كما وعدتني؟"

سعد مستنفراً كل طاقته في وعدٍ جديد: "غداً يا أبي.. أعدك بسداده غداً"

"ومن أين ستأتي بالمال؟ هل ستسرقه؟"

كان غاضباً وأوداجه منتفخة، لم يعد يحتمل ما يفعله، حديث شليّل معه أحرجه وكشفَ له عبث سعد في الحارة ومضايقته للسكان وأشعره بهمومهم وما يعانونه منه.

"لن أربي في بيتي شاباً ماجناً وغير مسؤول مثلك" ثم أتبعها: "أخرج من بيتي هيّا.. اذهب للشوارع التي تحبها يا كلب"

سقط عندها سعد على ركبتيه محاولاً التوسل إليه ولكنه لم ينظر إليه، حاولت أمه التدخل ولكنه أسكتها وأعاد وجهه إلى سعد: "قلت لك أخرج من بيتي قبل أن أرميك بيدي هاتين يا وقح"

خرج عندها سعد إلى الشارع، توقف على باب بيتهم يتحسس خيبته على وجهه ويدلك جبينه كأنما يداري خجله من نفسه. عاد له حظه الرديء وحسرته المحتشدة بصدره لا تجليها الزفرات. لم يكن بحاجةٍ لهذا، يلعن شليّل وسلمان وعمران ويتوجع في ضميره. لا يمكن لراحة باله أو سعادته الاستمرار ليومٍ كامل. يضرب رأسه بقبضته بين الفينة والأخرى ولا يجد مخرجاً لموقفه. هدوء الحارة مع اقترابها من منتصف الليل ألقى على صدره ثقلاً مضاعفاً جراء ما يعانيه وما لقيه من والده. التوقيت دائماً يخذله، والمصائب بالنسبة له لا تأتي فرادى، تجلب عليه من كل حدبٍ وصوب وفي الأزمنة التي يحذر منها ولكنه لا يخرج منها سالماً. يعود اليوم للنوم في حوض البيك آب، باتت بيته الثاني من وقتٍ لآخر، فتح بابه الخلفي وجلس عليه وهموم الدنيا تُحاصر صدره المنهزم. وبعد ساعةٍ من ذلك، خرج إليه مثيب وألقى له بغطاءٍ يلتحفه في حوض

البيك آب وعاد إلى المنزل. نام تلك الليلة هناك، نام منكسراً ومهزوماً يرتقب الغد.

وقفة:

(الحكمة ليست الخروج من المأزق الذي وضعت نفسك فيه، وإنما ألا تضع نفسك في مأزق أبداً) هذه حكمة قيلت في زمنٍ قديم، وكان على سعد أن يعيها قبل أن يحدث له ذلك.

(٨) الكلاسيكو

استيقظَ أذان الفجر رافعاً رأسه فوجد أباه أمامه يدفعه من كتفه. ضجت المآذن بالنداء الإلهي ولم يتأكد من واقعه حتى رأى غمامة الغضب ما زالت تستقر بين حاجبيه.

"أدخل البيت" قالها باقتضاب وأدار له ظهره مكملاً سيره إلى المسجد والباب الموارب ينتظر سعد. أجلسَ جسده وحك وجهه، ثم سحب غطاءه من مرقده وقفز من حوض البيك آب ودخل بيتهم وهو يحني رأسه بين كتفيه. اتجه إلى حجرته وانقض على فراشه ونام طويلاً وعميقاً متناسياً الحزن والخيبة واليأس المتقوقعة بصدره كثالوث يتحالف ضده ويدفعه لهوةِ الإحباط الذي لم يكن يتسع له صدره. صدره مليء بالفوضى المُرهِقة، الفوضى المتلفة للأعصاب والضغط النفسي الذي يكاد يركمه في مقبرته. لم يحلم تلك الليلة، كان يبحث عن النسيان وألقى كل ما حدث له خلف ظهره واستغرق في نومه.

استيقظ ظهراً كمن يستفيق من قبره، ظهره يتصلب بالإرهاق المتراكم على هيكله بعد نومه في حوض البيك آب. جلس على

سريره ولم يكن أمامه سوى ما هو مقدم عليه. نظر إليه في آفاق خياله فلم يعد لديه خيار، لن يختبئ من كلاوي، سيواجهه حتى لو حملت هذه المواجهة في نتائجها خسارته. سلمان وعمران لم يتركا له منفذاً بعد ما قاما به. يومه ليس عادياً هذه المرة، لا يعلم كيف سيستيقظ غداً أو كيف سينام الليلة بعد أن يكشف له القدر نهاية رهانه.

ترك فراشه بعدها ليستعد للمواجهة، اغتسل وتوجه إلى والده وقدم اعتذاره عما حدث. قبل رأسه ووعده أن يكون رجلاً مختلفاً منذ اليوم ثم تناول غداءه وارتدى ملابسه الرياضية ولم يكد يعقد رباط حذائه حتى سمعَ صوت مثيب: "الجميع ينتظرونك في الخارج"

خرج إليهم وتأملهم من على مُنحدرِ بابهم. الأبكم وأبو جابر وصبيته يقفون خلف فريقه ومثيب يخرج من الباب من خلفه. يبدو كل واحدٍ منهم على أهبة الاستعداد. يرتدون قمصانهم والحماس يطفر من وجوههم ويحرك أجسادهم بوثباتٍ مفاجئة. انعقد العزم بين حاجبيه وأشار لهم: "هيّا بنا"

ساروا محتشدين خلفه، يصطف سلمان وعمران على جانبيه ويتبعهم باقي الفريق ومعهم أبو جابر. يسدون الشارع وهم يسيرون فيه ولا ينظرون إلا لآفاق مخيلاتهم في ملعب كلاوي. خرجوا إلى

شارع عشرين فرآهم حيدر في بقالته فهرع يخرج زبائنه ثم أغلق الدكان والتحق بموكبهم وهو يحمل على عاتقه صندوق الماء والعصائر.

قطعوا الشارع نحو حارة كلاوي دون أي كلمات بينهم، وما إن أطلوا على الساحة حتى رأوا منظراً كانوا يتوقعونه. الساحة محاطة بالجماهير والسيارات مصطفة على جوانبها حتى غابت عنهم أرضية الملعب. لم يترك كلاوي وسيلةً ممكنة يعلن بها عن المباراة إلا وقام بها. النوافذ ممتلئة بالمشجعات، والعجوز صاحب علم الأهلي في مكانه. صوت كلاوي يرتفع من مكبر صوتٍ يدويّ محاولاً تنظيم الجماهير وفريقه يهرول في منتصف الملعب ويقوم بتمارين الإحماء.

كل شيءٍ كان في مكانه، الأبواب الحديدية المتنقلة، دكتي الاحتياط الخشبيتين التي أضافهما كلاوي مؤخراً، زي فريقه الموحد المرتب على الدكة، وسبعة لاعبين من فريقه يقومون بالإحماء. يرتدي كلاوي زي حارس المرمى ويحاول السيطرة على الجماهير. أحضر كاميرا وكلّفَ أحد أصدقائه بتسجيل المباراة. وزع منشورات عن موعد أول مباراة لفريقه يفتتح بها ملعبه.

نايف وقدان وسعيّد كانا هناك بانتظار سعد، وما إن رأوه يدخل الملعب حتى تقدموا إليه وانخرطوا مع فريقه في تمارين الإحماء.

أصاب التوتر فريق سعد منذ دخولهم الملعب. الجماهير، الاستعدادات، الخوف من القادم، دفعتهم لجوٍ مشحون بخلاف فريق كلاوي الذي كان لاعبيه في حالةٍ من الطمأنينة والثقة ولا يخشون شيئاً.

لم يكن سعد يأبه بما يحدث، الاستسلام والتعب والإرهاق النفسي من الأحداث الأخيرة والجسدي من نومه السيء في حوض البيك آب جعلته يريد التخلص فقط من هذه المباراة ومن هذه الأيام التي يريد مرورها بسرعة. ولكنه عندما قاد طابور فريقه في المران ورفع رأسه ينظر إلى منتصف الملعب أصابه الرعب، رأى شليّل يرتدي زي الحكم وفي فمه صفارة فضية لامعة ويضع الكرة تحت قدمه في دائرة المنتصف. ربما راوده الأمل بالفوز قبل رؤية شليّل، ولكن اليأس سرعان ما عاد له وازدادت عقباته وسيلعب الآن ضد فريق كلاوي والجمهور والحكم.

توزع الفريقان على أرض الملعب استعداداً للمباراة. تقدم سعد وكلاوي كابتني الفريقين نحو شليّل الذي أجرى القرعة دون أن يتبادلا التحية ثم سأل سعد الذي وقعت القرعة عليه: "هل تريد ركلة البداية أم تختار الملعب؟"

"ركلة البداية" قالها سعد بلا اهتمام فانتظم اللاعبون في أماكنهم.

وقبل أن يعود كلاوي إلى مرماه نظر إلى سعد بسخرية قائلاً: "أرنا ما لديك يا حبيب الخادمات" وانطلق ضاحكاً وهو يشير إلى أحدهم في منتصف الملعب فقام هذا الأخير بإلقاء عود ثقاب على الأرض دبت معه النيران في محيط الملعب، أشعل البنزين المنسكب على حدود الملعب كاحتفالية بأول مباراة تقام عليه فهلّلت الجماهير معجبين بها. استغرقت النيران دقيقتين قبل أن تبدأ في التلاشي ثم تنطفئ ولكنها بقيت بداخل سعد حتى أطلق شليّل صافرة البداية مشيراً إلى الأمام فبدأت المباراة.

الجماهير لم تصمت، لم تجلس، الحارة كلها كانت أشبه ببوتقة تضج بالهتاف. في منتصف الملعب منصة للكاميرا التي تسجل المباراة. في صف دكة فريق سعد جلس أبو جابر وأبناؤه وحيدر والأبكم يهتفون لفريقهم ولكن هدير جماهير الحارة ابتلع أصواتهم. هناك أيدي تبرز من النوافذ وتلوح بأعلامها، والعجوز صاحب العكاز يرفعه بين الوقت والآخر من شرفة منزله.

أديرت الكرة بحرفية عالية على الأسفلت منذ انطلاق الصافرة. تناقلها رفاق سعد مع صيحات الاستهجان الابتدائية دون أن يأبهوا بالجماهير. تأهب الجميع وفتحوا الملعب وسعد يشير إلى مراكزهم وتوزيعهم ولا يتوقف عن إرشادهم بلا انقطاع.

بعد دقائق استطاع سعد الاستدارة في المنتصف من بين ثلاثة لاعبين وتخلص منهم موزعاً الكرة على الجانب الأيسر فأثار إعجاب الجماهير. كان يركض، يوزع، يتلقف الكرة على صدره بمهارة ويتجاوزهم واحداً تلو الآخر ويشكل مع لاعبي فريقه كتلةً متراصة يتداولون الكرة فيما بينهم ثم ينفذ بها من تجمعات فريق النسور ويتقدم إلى الأمام لصناعة اللعب.

تلقف الكرة المرتفعة برأسه في منتصف الملعب وتجاوز لاعب المحور فإذا به يجد المنطقة تتكشف أمامه فتقدم بها إلى العمق حتى انتصف ملعبهم ومررها أرضية سهلة لسعيّد في الأمام الذي لحق بها وسددها فمرت متوسطة الارتفاع بجانب القائم كهجمةٍ أولى مُهدرة.

حبس أنفاس المشجعين واستغرقوا بعض الوقت لاستعادة رباطة جأشهم. محاولة خطيرة جعلت الجميع يدرك أن خصمهم ليس سهلاً. زيهم يبدو مثيراً للإعجاب، توزيعهم في الملعب يبدو جيداً، ولكن آمال أهل الحارة كانت تنعقد على فريقهم الذي يجمعهم ويوحدهم ويعقدون عليه طموحات كبيرة في البطولات القادمة على مستوى منفوحة وربما على مستوى الرياض.

عادت الكرة من مرمى كلاوي، أرسلها هذا الأخير طويلةً فتلقفها مرةً أخرى سعد بقفزةٍ أفزعت الجميع. طار لها عالياً وأخذها

على صدره في الهواء مسيطراً عليها ثم حط على الأرض ليدور بها في المنتصف ويمررها سريعاً إلى جاسم الذي سرعان ما أعادها إليه مع انطلاق نايف وقدان وحيداً في المقدمة لفتح الملعب فأرسلها طويلةً ساقطةً نحوه وتلقاها برأسه ولكنها مرت من فوق العارضة مرةً أخرى.

"حلو.. حلو يا شباب.. القادمة سنسجلها.. القادمة سنسجلها"

صفّق بيديه وهو يقول ذلك، رفع من حماس نايف وسعيّد اللذان أهدرا فرصتين ابتدائيتين كي لا يتسرب الخذلان إليهما. أما الجماهير فقد عرفت أن كل ما يحدث في الملعب يدور حول سعد، يدور حول هذا الطويل المهاري، يسد الثغرات، يستحوذ على الكرة، ويصنع الهجمة ويعبث بلاعبيهم ويتساقطون أمامه كلاعبين مصنوعين من ورق. ما إن يستحوذ على الكرة فلن يستطيع انتزاعها منه أحد.

بدل كلاوي تكتيك بداية الهجمة، قرر تمريرها قصيرةً هذه المرة إلى الظهير فاستطاع فريقه السيطرة على اللعب. بدأوا تناقل الكرة فيما بينهم بحرفية عالية. حاول سعد سد الثغرات أمامهم ولكن جاسم وخليفة وعمران لم يساعدوه في ذلك حتى استطاع الجناح الأيمن النفاذ وتمرير كرةٍ عرضية التقطها عبود الأعور وسددها

فارتطمت في عارضة سلمان الذي لم يحرك ساكناً ثم أنهاها مثيب إلى خارج الملعب.

كان واضحاً منذ البداية أن هناك ثغرات كثيرة في فريقه، عمران، جاسم، خليفة، ثلاثي يؤرقه داخل الملعب. ونقطة الضعف الكبيرة في حراسة المرمى لا يمكنه نسيانها. ولكنه سيلعب على المعنويات، يجب أن يسجل هدفاً من بداية المباراة حتى يتحمس فريقه ويتضعضع الخصم ويبدأ بعدها بالسيطرة على الملعب. انتهج الهجوم باكراً ولكن هذه الكرة التي ارتطمت بالعارضة كادت تفقده تركيزه وتبعثر خططه.

"مثيب" مشيراً سعد إلى أخيه: "لا تتراجع.. إذا ضغط أحد ظهيريك على المهاجم كن خلفه وأنا سأغطي متوسط الدفاع" نبهه لما يفعله بلا شعورٍ منه، كان يتراجع نحو المرمى بدلاً من التقدم لمواجهتهم.

دارت الكرة مجدداً على الأسفلت والجمهور لا يتوقف عن هتافه. لا تخرج إلا نادراً ويتراقص بها أشهر لاعبي منفوحة حتى استولوا عليها. عادت الثقة لهم ودخلوا أجواء المباراة وراحت الهجمات تنهال على مرمى سلمان ولكن سعد ومثيب كانا لها بالمرصاد. استعاد لاعبو النسور ثقتهم وتقدموا إلى الأمام دون

الاحتفاظ بالكرة، كانوا يتناقلونها متخذين من لعبهم الجماعي وسيلةً أكثر نجاعةً أمام سطوة سعد.

كانت الكرة في المنتصف واحتك سعد مع أحد المحتفظين بها واستطاع استخلاصها منه ولكن لاعباً آخر اندفع نحوه فأسقطه أرضاً وعادت الكرة إلى فريق النسور وشنوا هجومهم مباشرةً. أُرسلت الكرة طويلةً إلى جميل بن مرضاح في الجناح الأيسر، كان فريق سعد ينتظر صافرة شليّل التي لم يطلقها وأشار بيديه نحو أرضية الملعب مستكملاً اللعب. التقط جميل الكرة واجتاز خليفة بسهولة فتقدم مثيب إليه ولكن الوقت لم يسعفه والمرمى كان مكشوفاً في الخلف لأن سعد لم يتدارك تغطية مثيب بعد سقوطه. أرسلها جميل عرضية إلى عبود الأعور الواقف وحيداً أمام المرمى فلم يتأخر، قفز لها برأسه وأودعها الزاوية الأرضية.

"هدف.. هدف أول" صرخ أحدهم في مكبر الصوت. ضجت الجماهير وهتفت الأصوات وتحركت الرايات في النوافذ. انتفضت الحارة برمتها وعبود يركض إلى الزاوية ورفاقه يطاردونه. خرج كلاوي من مرماه وارتمى عليه وشليّل أشار إلى منتصف الملعب وسلمان يصرخ فيه: "فاول يا حكم!.. أين عيناك؟ ألم تره يسقط سعد؟!"

أشار شليّل إليه بالعودة إلى مرماه ولكن سلمان ظلَّ يقترب منه وهو يشجب ويستنكر حتى تدخلَ عمران: "يا أحمق.. لقد أسقط سعد أمامك وأنت تنظر إليه!" أطلق شليّل الصافرة بوجهٍ غاضب وهو يشير بيديه في وجهيهما وتدخلَ سعد فأبعدهما عنه: "لا بأس يا شباب.. ما زالت المباراة في بدايتها"

عاد اللاعبون إلى مناطقهم واستؤنفت المباراة. هدف أول جاء بعد ربع ساعة من البداية ولكنهم يستطيعون استعادة الأوضاع. حاول سعد بث الثقة فيهم وتشجيعهم وعاد إلى السيطرة على الملعب. لا أحد يجاري سعد في منطقته، كرة القدم هي لعبته وكل من يلعبها قد يكون مجيداً أو فناناً على أبعد تقدير ولكن ذلك قبل أن يلتقي بسعد فيصبح لاعباً ضعيفاً أمامه. قوة فريقه تكمن فيه ولكن الهدف الذي ولج مرماهم جعل فريقه يفقد حماسه فبات يُدير الكرة في المنتصف وحيداً. لا يستطيع تجاوز منتصف الملعب ولا الوصول بها إلى منطقة الجزاء لأنهم فرضوا ضغطاً هائلاً عليه. يتظافرون على استخلاص الكرة منه ما أن تصل إليه ولا يجد من يساعده بسبب تباعد نايف وقدان وسعيّد عنه.

بدا غاضباً وصرخ فيهم بعد هجمةٍ جديدة كادت أن تعلن عن هدفٍ ثانٍ لفريق النسور ولكن مثيب أخرجها في اللحظة الأخيرة.

يريد من لاعبي الوسط مؤازرته والاقتراب منه ولكن لا أحد منهم يفهم كرة القدم كما يفهمها.

مع بداية الثلث الأخير ممن الشوط الأول تحصل فريق النسور على خطأ على قوس منطقة الجزاء. دفع عمران أحد لاعبي النسور فأسقطه أرضاً برعونةٍ لا تمت لكرة القدم بصلة. كاد سعد أن يصرع عمران على إثر ذلك، خطأ غير مبرر ولا حاجة لهم به في منطقة خطيرة.

اصطف مع عمران وسعيّد ونايف أمام الكرة وتقدم لتسديدها الأعور. كان شهيراً بتسديداته التي لا تُخطئ وسعد يعرف ذلك جيداً ويخشى مما قد يحدث في الخلف. وما إن أطلق شليّل صافرته مؤذناً بتسديد الركلة حتى انطلق عبود وأودعها في شباك سلمان بلا تأخير.

ضجت الحارة مرةً أخرى، الهدف الثاني وصيحات الجماهير تصطخب من حول الملعب وحيدر يكاد يبكي والأبكم يتذمر أما أبو جابر فكان يشرب العصير مع أبنائه غير آبهٍ بما يحدث.

تنامى الإحباط بعدها في صدر سعد، ينظر إلى زملائه وهم ينكسون رؤوسهم ثم إلى كلاوي الذي يرقص في منتصف الملعب قبل أن يعود إلى مرماه. لم يستطيعوا الوصول إلى منطقة الجزاء

منذ منتصف الشوط الأول وكل هذا بسبب الهدف الأول الذي ولج مرماهم. فقد عنصر المباغتة وخطته ذهبت أدراج الريح.

اثنان لصفر، نتيجة موجعة والوقت ما زال مبكراً. الخيبة تعلو وجوه فريقه مما ينذر بقادمٍ أسوء خلال الدقائق القادمة.

درجت في رأسه فكرة جديدة وظن أنه يستطيع تحقيقها؛ سيحاول بكل ما يستطيع أن يسجل هدفاً واحداً على الأقل، إذا سجل هدفاً في مرمى كلاوي فسيكون طوق نجاته، هكذا اختمرت الفكرة في عقله. سيظل يسخر منه بسبب هذا الهدف إذا تجرأ وسخر منه بخسارته. سيقول له أن فوزه لا يعني شيئاً ما دام قد سجل فيه هدفاً. هكذا كان يحاول التمسك بأي طريقةٍ تضمد جراحه، سيبقى هذا الهدف أمله الأخير. وفيما كان يفكر في ذلك فقد تركيزه في الملعب والكرة تطوف من حوله. ضغط النسور حشرهم في ملعبهم وبات يدافع عن المرمى ولا يستطيع السيطرة على الكرة ولم يجد للهجوم سبيلاً فتركه للصدفة أو للحظ أو للوقت القادم. ولكن ذلك لم ينفعه أيضاً، فقبل نهاية الشوط الأول تبادل لاعبو النسور التمريرات القصيرة في المنتصف قبل أن يفتح جميل بن مرضاح الملعب في الرواق الأيسر وتُرسل الكرة إليه، سيطر عليها بقدمه اليمنى ثم أرسلها باليسرى ساقطةً من فوق الجميع

نحو مقص المرمى البعيد كهدف لولبيّ رائع هتفت له الجماهير وأطلق على إثره شليّل صافرة نهاية الشوط الأول.

توجه الفريق يجرُّ أذيال هزيمته إلى مقاعد البدلاء وهم يتبادلون الشتائم ويحمّلون بعضهم أسباب الأهداف المتنوعة التي ولجت مرماهم.

لم يصلوا إلى الدكة حتى قفز الأبكم أمام سعد مشيراً إلى نفسه ثم إلى الملعب. أمسك بذقنه متوسلاً إشراكه ولكن سعد لم ينظر إليه. اقترب سلمان منه وجلس بجانبه وقال: "اسمع يا سعد.. لم يعد باليد حيلة. المباراة تضيع من أيدينا"

نظر إليه سعد المستسلم: "قلت لكم ذلك.. أخبرتكم أن فريقه قوي ولكنكم قلتم أنكم تستطيعون الفوز معتقدين أنكم ستخضون مشاجرة"

"حسناً إذاً، ما دام هذا ما نحسن عمله فلنقم به"

"ماذا تعني؟"

قال سلمان بعينين منفعلتين: "سنفتعل شجاراً!" ثم موضحاً: "سيقوم عمران بالحراسة وسألعب في خانته، وعندها سألعب معهم بخشونة. لن أترك أحداً منهم، سأركل اللاعبين وليس الكرة، سأضرب من أجد أمامي سواءً كانت الكرة معه أم لا. سأجعل الجماهير تسمعُ تكسر عظامهم"

"هل أنت مجنون؟"

"قد أكون مجنوناً عندما ظننت أننا سنفوز عليهم أما الآن فأنا أعقل منك" ثم مستكملاً: "بهذه الطريقة سأدفعهم إلى الغضب، سأستثيرهم حتى يفقد أحدهم أعصابه ويلاسنني أو يتهجم عليّ، وحينها لن أفوّت الفرصة، سأشتبك معه، سأبطحه أرضاً وأنهال عليه ضرباً"

"وماذا بعد؟"

"بعدها يأتي دورك، لا تتردد في المشاركة بالعراك. افهم ما أقوله.. ليس للتفريق ولكن للمشاجرة. أريد معركة شرسة وشجاراً يُنهي المباراة في حينها. أضرب من تجد أمامك حتى لو كان شليّل الكلب. سننهي المباراة بهذه الطريقة وستكون لدينا ذريعة نحتج بها أمام كلاوي والناس أن المباراة لم تنتهِ وأننا كنا سنعود بالنتيجة ولكنهم افتعلوا الشجار وأنهوا المباراة" كان سعد يفكر وهو يستمع إليه: "أريد شجاراً قوياً وليس شجاراً عادياً يا سعد، لا تتوقف عن العراك حتى تَدخُل في غيبوبة.. لا يهم إذا وصل الموضوع إلى الشرطة، المهم ألا نخسر من هذا الأحمق"

"إنهم أكثر منا، قد يتدخل الآخرون!"

"بالطبع فريقنا سيشاركون أيضاً عندما يرون المعركة. عمران يقدس المشاجرات ولن يتورع في المشاركة. أخوك مثيب لن يرضى

أن يراك تتعارك ويقف متفرجاً، أما جاسم وخليفة فنصف (حولي) يريدون الثأر منهما ولن يقفا مكتوفيّ الأيدي. المهم ألا نتوقف حتى لو توقفوا هم، يجب أن نجلد كل من نجده أمامنا حتى يفقدوا أعصابهم وتُشج الرؤوس ويسيل الدم"

"إنها حارتهم يا سلمان، إنهم أكثر منا، وقد ينضم الجمهور إليهم"

"لا بأس، دعنا نُضرب حتى نتكسر. ليسخر منا الناس ويقولوا أنهم أشبعونا ضرباً ونحن أشبعناهم شتائماً.. هذه ليست مشكلة. تعرضنا للضرب أفضل من خسارتنا من هذا النجس" وبعد أن نظر إليه مدققاً: "هاه يا سعد.. إنها ثلاثة في شوطٍ واحد.. نحن لا نملك حلاً آخر!"

كان حلاً معقولاً بالنسبة لسلمان أما سعد فلم يعهد هذا الأمر، إنه لاعب محترف يقدر كرة القدم وفنونها ولا يعتمد هذه المهازل ولكنه لم يجد مفراً من ذلك.

"سيسخر منا كلاوي العمر كله يا سعد"

قال جملته الأخيرة فكانت مقنعة، أضافها سلمان وسعد يفكر، يطالع فريقه ولا يجد بينهم من يستطيع صناعة المعجزة وإعادة المباراة إلى نتيجة التعادل على أقل تقدير.

"حسناً" قالها سعد بعينين متربصتين: "ولكن لن نقوم بالأمر الآن.. لنأجل الموضوع حتى آخر ربع ساعة من الشوط الثاني. دعنا نرى مجريات المباراة خلال الوقت القادم ثم إذا لم نجد بداً من ذلك سنفعلها"

أبقى على أمله الأخير في متناول أحلامه، دخول سلمان لن يساعد في تشكيل الهجمات بل قد يدفعه للشروع بخطته منذ نزوله وسعد يريد أن يسجل هدفاً واحداً في كلاوي فيسخر منه العمر كله. وإذا ما تم له ذلك فسيعتبره نصره الذي أعده له القدر وساقه إلى هذه المباراة المستحيلة.

عاد اللاعبون إلى الملعب استعداداً لبداية الشوط الثاني. الضحك والسخرية كانت تتعالى من أفواه لاعبي النسور وعلى رأسهم كلاوي الذي تعمد المرور بمحاذاة سعد وسلمان ليستفزهم قائلاً: "من المؤسف أن ديني لدى حيدر بلغ اليوم ألف وخمسمائة ريال"

نظر إليه سلمان بغضب: "اذهب إلى مرماك قبل أن أتسبب في خروجك مصاباً"

تأكد شليّل من استعداد الفريقين وأشار إلى الحارسين في مرميهما عندما علت ضجة من طرف الملعب. توقفت سيارة أجرة هناك وترجلت منها خادمة عمران ومعها فتاتين أخريين وراحت

تصيح لسعد من بعيد وتشير لهن إليه. قفزت بعباءتها في مكانها وأرسلت له القبلات بيدها فنظر متعجباً إلى عمران: "ما الذي جاء بها إلى هنا؟" ثم ليسأله: "ألم تقل إنها هربت؟"

"بنت الكلب!" ثم متبعاً: "هربت وجاءت الآن لتشجعك!"

مثيب قادماً من الخلف: "ما هذه المهزلة يا سعد؟"

"أقسم لك أن لا علاقة لي بها ولا بما يحدث"

"وكيف عرفتْ بالمباراة؟"

قال عمران: "مني أنا. فمنذ أن تحدانا كلاوي وأنا أخبر أهل بيتي بأنني سألعب تحدياً مهماً.. من المؤكد أنها سمعتني وجاءت من أجل سعد"

"ولماذا جاءت؟ لأنه يشبه ولدها؟" قالها مثيب متهكماً بغيض ولكن لم يجبه أحد. أطلق شليّل صافرة البداية فتحركت الكرة بين أقدام لاعبي النسور مما دفع مثيب للعودة إلى الخلف وهو يتوعد سعد: "حسناً.. سنتحدث فيما بعد"

سعد كان يفكر في الهدف الذي يجب عليه إحرازه وبعدها سيجعل سلمان يفتعل المشاجرة، إنه حل معقول لهذه الكارثة التي تحدث لهم. عليه تسجيل الهدف بقدميه وإلا سيكون أي هدفٍ يسجله نايف أو سعيّد بلا معنى.

بعد مرور عشر دقائق من اللعب انطلق لاعبو النسور بالكرة من الجانب الأيمن، حاول خليفة التغطية ولكنه لم يتمكن منها فهرع مثيب واستخلص الكرة وبدل جهة اللعب إلى جاسم الذي أرسلها إلى الأمام حيث عمران في المنتصف. حاول هذا الأخير الاستحواذ على الكرة والركض بها أكبر مسافةٍ ممكنة حتى اقترب منه سعد ولكنه لم يمررها له، فضّلَ الاحتفاظ بها ولكن ذلك لم يطل. استخلصها لاعبو النسور وشنوا هجوماً عكسياً لم يستطع معه فريق سعد تدارك الموقف وسجلوا هدفاً رابعاً.

لم تعد صيحات الجماهير كما كانت عليه، اللاعبون في الملعب أيضاً بدا احتفالهم باهتاً. الأهداف فقدت نكهتها مع كثرتها، سُجلت في مرمى سلمان بالجملة وبشكلٍ عادي مما جعلها رتيبةً ولا تدعوا إلى السعادة.

هدف رابع، هدف جديد يُظهر تدني مستوى الفريق الذي لم يستحق أحد منهم إعجاب الجماهير عدا اللاعب الطويل في المنتصف. أما اللاعب الطويل فقد انهارت أحلامه ما إن رأى مرماه يتلقى هدفاً رابعاً.

توجه كلاوي إلى جماهيره المتحمسة ولقنهم بعض الكلمات وعاد إلى مرماه والكرة تعود إلى المنتصف فرددوا معاً:

"والخامس.. الله يجيبه"

"والخامس.. الله يجيبه"

ترددت أهزوجتهم في عقل سعد كما تتردد في الحارة، فكر في الهدف الخامس بخوف، لن يستطيع الموازنة بين الهجوم والدفاع وهو يعرف تماماً ما تعنيه الخمسة التي يفوز بها فريق على آخر في مباريات الحواري.

"خمسة!"

"خمسة!"

كان خائفاً منها. يريد تسجيل هدفٍ واحد فقط ثم يستبدل عمران بسلمان ويفتعل هذا الأخير المشاجرة قبل الهدف الخامس، هذه أقصى أمنياته الآن ولكنها تبدو بعيدة المنال.

عادت الكرة إلى المنتصف وركلها نايف وقدان والخوف يتنامى بداخل سعد من أهازيج الجمهور. تبلبل بين ما يريده وما يخشاه وهو يرى سلمان يشير إليه من بعيد بأن يعجل في استبدال عمران فأشار إليه بالموافقة منتظرين توقف اللعب.

انكشفت الأوراق الآن، أدرك لاعبو النسور أن الثلاثي؛ عمران وجاسم وخليفة، بوابةً مفتوحة على مصراعيها وطريقاً معبدة إلى المرمى. بات الواحد من النسور لا يولي الثلاثي أي أهمية ويحتفظ بالكرة ليكسب المساحات ويستطيع زملاءه الانتشار في أماكن متفرقة تمكنهم من السيطرة على الملعب. الهيبة التي جاؤوا بها في

قمصانهم الهولندية لم تُجدِ نفعاً، والسيطرة الابتدائية التي حاول سعد صدمهم بها وزعزعة ثقتهم تهاوت الآن.

عادت الكرة بين قدمي سعد مرة أخرى. حافظ عليها بين قدميه وحاول مخاشنة كل من يقترب منه كبداية لتنفيذ خطة سلمان. وبعد أن احتشد حوله ثلاثة منهم، أرسل الكرة إلى الرواق الأيمن ما إن رأى عمران ينطلق إلى الأمام ولكن هذا الأخير لم يستلمها، قفز عالياً واختل توازنه في نزوله بعد اصطدامه بأحد لاعبي الخصم فتلقى الأرض بقدمٍ ملتوية من مكانٍ مرتفع وجاءت صافرة شليّل لتعلن عن خطأ ولكن عمران لم يقف لتنفيذه. نظر إليه سعد فإذا به يتلوى على الأرض وهو يمسك كاحله، ذهب إليه فوجده يتألم ويسترد أنفاسه بصعوبة.

"ما بك؟"

"قدمي يا سعد"

أمسك سعد بقدم عمران وسلمان يتقدم من خلفهما: "ما الذي حدث؟"

"أصيب عمران" ثم سأله متحسساً قدمه: "ألا تستطيع الوقوف؟"

أشار نافياً برأسه ووجه الدائري يزداد حمرةً حتى بات قريباً من لون الدم. بدا متوجعاً فشعر سلمان أنه سيفسد خطتهم: "قم يا عمران.. لا بد أن تقوم"

"لا أستطيع" أجابه بصوتٍ متوجع.

تقدم إليهم شليّل وألقى نظرةً عليه وقال: "صديقكم لا يستطيع إكمال المباراة، يجب عليكم استبداله"

"سيحرس المرمى" قالها سلمان ثم أعاد وجهه إلى عمران: "اذهب يا عمران إلى حراسة المرمى"

"لا أستطيع أن أقف يا سلمان، قدمي تؤلمني"

شعر سعد بالخيبة، خطة سلمان هي الأخرى باتت رهن الفشل ما لم يقف عمران على قدميه لإكمال المباراة حارساً.

صفّرَ شليّل طالباً منهم إخراجه من الملعب حفاظاً على الوقت. حملوه إلى دكة البدلاء فقفز عندها الأبكم يمدد جسده أمام سعد وهو يشير إلى نفسه ويهزُّ رأسه إلى الأسفل وكأنه يستأذنه فلم يجد سعد حلاً بديلاً لنزوله. لم يعد الأمر مهماً، لقد خسر المباراة ولم يعد أمامه سوى تسجيل هدف ثم يفتعلون المشاجرة. اقترب منه سلمان: "بات الوضع جيداً يا سعد، هم من بدأوا العنف، ستكون هذه ذريعتنا" ثم ليؤكد على سعد: "في آخر ربع ساعة سأبدل مع الأطرم"

هزَّ سعد رأسه موافقاً ولم يقل شيئاً. أخرج شليّل بطاقةً صفراء في وجه اللاعب الذي تسبب بإصابة عمران ولعب الأبكم في خانة هذا الأخير. بدأ اللعب من عنده، مرر الكرة إلى سعد المصاب

بالبلادة، جاءت الكرة إليه لأول مرة في حياته وهو لا يريدها. ركض الأبكم إلى الأمام وطالب باستعادتها ولكن سعد لم يعره اهتماماً واتجه بها إلى الجانب الأيسر حيث سعيّد.

كان الوقت يمر سريعاً، لم يتبقَ على نهاية المباراة سوى عشرين دقيقة وسلمان يتربص بالوقت ليطلب من الأبكم أن يلعب حارساً. حاول سعد الاختراق من الجهة اليسرى بمساعدة سعيّد ودعم من نايف الذي راح يتحرك محاولاً إيجاد الثغرات في المقدمة ولكنه لم يفلح. كل محاولاته باءت بالفشل فظلَّ يدور بالكرة على نفسه ويمررها أو يتلقاها من سعيّد. عادوا للتكالب عليه حتى ضيقوا الخناق. مرَّ من الأول وتجاوز الثاني وتقدمت الكرة أمامه وإذا بالأعور يكاد يصل إليها فرفع رأسه ووجد الأبكم على الجانب الأيمن كما تركه فلم يجد بداً من إعادة الكرة إليه بركلةٍ طويلة أخذت عرض الملعب. لم يجد مخرجاً سوى هذا قبل أن يصل الأعور إلى الكرة. ضيّقوا الخناق عليه ولم يفكر أنه سيعيدها إلى الأبكم ولكنه فعلها في لحظة لم يستطيع فيها مراجعة أفكاره فتلقاها الأبكم على صدره ثم أنزلها على قدمه اليمنى وظهير النسور الأيسر يندفع إليه فمررها من بين ساقيه برشاقة وانطلق على الرواق الأيمن يعدو بها. لم يصدّقَ سعد ما رآه، بحركةٍ مهاريةٍ رشيقة انطلق الأبكم إلى الأمام فتقدم سعد نحو المرمى ضاغطاً

على منطقة النسور وفكرة العرضية تراوده. إنها الطريقة المثلى للعب كرة القدم في مثل هذه الحالة، انفتح الملعب على أحد طرفيه وانطلق لاعب من النسور إلى الأبكم وانتشر الآخرون للتغطية فلاحت الثغرات مفتوحةً نحو المرمى ولم يتبقَ سوى كرة عرضية نموذجية يرسلها الأبكم إلى المتواجدين أمام مرمى كلاوي ولكن هل سيفعلها؟! وكما تمنى سعد، أرسلها الأبكم عرضية مثالية على رأس نايف وقدان الذي قفز من بين المدافعين ووضعها في المرمى وقفز خلفها كلاوي لكنه لم يصل إليها.

صوت وحيد صرخ، صوت وحيد هلّلَ للهدف من خارج الملعب كان صوت الخادمة. الحارة برمتها أصابها الخرس وتعالت هتافات الخادمة بين صديقتيها بكلامٍ غير مفهوم قبل أن يتنبه أبو جابر ويقف على قدميه ويصفّق مع أبنائه ويخبر عمران وهو يتلوى بجانبه من الألم.

فريق سعد لم يتفاعلوا مع الهدف، شعروا أنه بلا طائل ولم يتبادلوا التهاني وعادوا إلى مراكزهم مستأنفين اللعب عدا الأبكم الذي ذهب إلى نايف وقدان وقبل رأسه كما يفعل اللاعبون على التلفاز.

أراد سعد أن تصل الكرة إليه، أن يسجل الهدف ليتم استبدال سلمان ويشرع في تنفيذ خطته ولكن ذلك لم يحدث فلم يشعر أن

هناك تغيّراً كبيراً حدث في المباراة، بل إن خوفه من الهدف الخامس ما زال على حاله.

عادت الكرة بعدها إلى المنتصف وسلمان يشير إلى سعد بالاستبدال ولكن هذا الأخير يريد هدفه. شعر أن هناك أمل في تسجيله بعد اهتزاز ثقة الخصوم بهدفٍ أول. لن يتراجع عما أراده قبل أن يفسد سلمان المباراة فاستمهله حتى يسجله.

استلم جميل بن مرضاح الكرة من عبود الأعور مجدداً، أراد الزحف بها على مناطقهم الضعيفة كما اعتاد ولكن سعد هذه المرة وقف له بالمرصاد. ضيّق المساحة بوجهه مما دفعه إلى إعادة الكرة إلى المنتصف حيث راح النسور يُنظمون هجومهم مجدداً. وصلت الكرة إلى الرواق الأيمن حيث الأبكم يبذل قصارى جهده في التغطية. وكما لم يتوقع أحد أن يصنع الهدف الأول، فعلها مرةً أخرى واستخلص الكرة في غفلة من زملائه المتراجعين فلم يجد بداً من التقدم بها وحيداً. رفع رأسه باحثاً عنهم فلم يجد أحداً بجانبه أو أمامه عدا لاعبي النسور الذين اصطفوا لاعتراض طريقه ولكنه لم يتهاون، لم يفكر مرتين، وضع تركيزه في التقدم بالكرة محاولاً دفع رفاقه للحاق به رغم سرعته الهائلة. اعترضه لاعب المحور فتجاوزه، ثم الظهير الأيسر فتجاوزه، ثم متوسط الدفاع فأطاح به وهو يندفع نحو العمق حتى وجد نفسه أمام كلاوي وبحركةٍ

تمويهية بطحه أرضاً ووضع الكرة زاحفةً على الأسفلت ليعلن عن هدفٍ ثان، هدفٍ رائع، هدف يشبه الهدف الثاني لماجد عبدالله في مرمى الصين في نهائي كأس الأمم الآسيوية ١٩٨٤م. هدف تخطى به كل الحدود والأحلام والتوقعات مما جعل سعد يقف مذهولاً في منتصف الملعب وهو ينظر إليه بتعجب وكلاوي يضرب بقبضته الاسفلت والأبكم يركض محتفلاً بالهدف ونايف وقدان وسعيّد مليحان يطاردانه.

لم يفق سعد من غيبوبة ما يحدث والكرة تعود مجدداً إلى المنتصف. بدأ الغضب يظهر على كلاوي وتعالى صراخه على لاعبيه. بات الموقف مشحوناً مضطرباً بين لاعبي النسور ومتفائلاً في قلوب رفاق سعد الذي كان يفكر أن ما يحدث ليس حقيقياً ومن غير الممكن أن يملك الأبكم هذه القدرة الخارقة والمهارات الاستثنائية التي لم يتوقعها وتعامل معها بعجرفة. ما يراه الآن منه كان كفيلاً بأن يرجح كفتهم في المباراة لو أنه أشركه أساسياً.

كان الندم يعتصره ولكنه لم يعد للتفكير في الأمر. الميدان الآن بين يديه ولا بد أن يستغل دفقة الحماس الجارفة التي انتابت رفاقه فهرع إلى اللعب مجدداً بنشاطٍ وحيوية وعزيمةٍ جبارة. حتى لو كان النصر بعيداً فلن يترك هدفه، لا بد أن يسجله في مرمى كلاوي

قبل نهاية المباراة. حاور وناور في منتصف الملعب حتى استخلص الكرة ووزعها مجدداً ولكن هذه المرة على الجانب الأيمن حيث الأبكم وذهب لمساندته. المباراة عادت حماسيةً كما بدأت ولم يتبقَ عليها سوى ربع ساعة. وفي ذروة الخذلان المتسرب إلى النسور، انطلق الأبكم مجدداً على الرواق الأيمن وهو يثق بنفسه، كان يتخطاهم كما يتخطاهم سعد، بل بطريقةٍ أكثر انسيابية بسبب قصر قامته وخفة جسده. يفتح عرض الملعب أو يتلاعب بالكرة حتى ينجرف المدافع معها يميناً فينقلها يساراً ثم يتجاوزه وينطلق. أرسل عرضيةً جديدة فارتطمت بيد أحد المدافعين فأطلق شليّل صافرته.

ضربة جزاء!

ضربة جزاء قفز لها عمران متناسياً وجعه وحاول كلاوي التفاهم مع الحكم الذي أصرَّ على قراره.

تقدم لها سعد، وضع الكرة على نقطة الجزاء وتراجع إلى الخلف مستحضراً كل انتباهه. فرصته حتى لو كانت كبيرة فهي مخيفة، ماذا لو تصدى كلاوي لركلته؟! ستكون النهاية مخيبة وسيسخر منه كلاوي إلى الأبد! نظر حوله عندها وأشار إلى شليّل: "تبديل يا حكم"

نظر إليه شليّل: "ماذا هناك؟"

أشار سعد إلى الأبكم بتسديد الركلة فلم يصدّقَ ما يحدث، كان كافياً بالنسبة له أن يكون احتياطياً، أن يحصل على قميص بالرقم عشرة، أما أن يلعب وأن يسجل هدفاً ثم يختاره رفاقه لتسديد ركلة جزاء! كل هذا لم يكن في حسبانه.

تقدم إلى الركلة ولم يتأخر، انطلق نحو الكرة بعد صافرة شليّل ووضعها بقوة وعلى ارتفاع متوسط في زاوية المرمى هدفاً ثالثاً والحكم ينظر إلى ساعته.

أربعة لثلاثة، والوقت لم يتبقَ منه الكثير، وسعد يبحث عن هدفه. بات طموحه الآن أكبر ورغبته تشجعه لأن هدفه الأمنية سيكون هدف التعادل.

احتدمت المباراة واحتبست الأنفاس في الأوقات الأخيرة. سجال الطرفين ارتفعت وتيرته وتراجع فريق النسور إلى مناطقه وراح فريق سعد يضغطهم فيها. اندفع الجميع وشارك مثيب في ركلات الزاوية المتكررة على مرمى كلاوي. بات سلمان يتقدم إلى منتصف ملعبهم ليعيد الكرة إلى ملعب النسور فيستكمل رفاقه الضغط عليهم.

لم يتبقَ من الوقت سوى خمس دقائق وغابة السيقان تقف سداً منيعاً أمام كلاوي. تُرسل الكرة من الأطراف فتحجبها التغطيات وتكتفي بإبعادها دون محاولة بناء هجمةٍ جديدة أو الاحتفاظ بالكرة

أكبر وقتٍ ممكن تحت صرخات كلاوي التي وترتهم. تُلعب من العمق فتحدث الدربكات ولكنها لا تصل إلى نتيجة.

أرسل سعيّد كرةً عرضية ارتقى لها نايف وقدان وضربها برأسه ولكنها ارتطمت بأحد المدافعين ثم سددها الأبكم فارتدت عن أجسادهم عائدةً متهاديةً إلى الخلف فرآها سعد وانطلق راكضاً لها قبل الجميع. ركض لها بكل رغباته والحل الوحيد لها يخطر في باله، ركض لها بدين حيدر واحترام والده والفوز على كلاوي وشعلة الحماس تتقد بداخله وهو يعاين المرمى في ركضه حتى وصل إليها فأطلقها قذيفةً بقدمه اليسرى تتخطى سدودهم المنيعة مرتفعةً عنهم لترتطم في المقص الداخلي وتعلن عن هدفه الحلم، هدف التعادل، هدفه الأخير الذي سيحفظ ماء وجهه. هدفه الذي أراده وتمناه في مرمى كلاوي.

انفجر الملعب عندها، لم يصمت أحد، لم يجلس أحد، الخادمة هتفت وركضت ورقصت كالمجنونة. عمران تحامل على إصابته وتوقف على قدميه وهو يصيح بعلو صوته متناسياً ألمه. الجماهير أذهلها ما يحدث. العجوز في شرفته وقف في مكانه وراح يلوح بعكازه مهلّلاً. النوافذ ضجت بصرخات ناعمة لما يحدث. انقلب السحر على الساحر. جمهور كلاوي تنكر له وراح يشجع فريق

سعد. أهداف بالجملة في دقائق معدودة أسقطت الانتماءات العنصرية في أنفسهم وراحت تهتف للفن وليس لشيءٍ آخر.

انتهت المباراة بعدها، لم يعد هناك وقت لأهدافٍ جديدة، شعر سعد أنه نال كفايته ولم يظن أن هذا قد يحدث معه، أن يحالفه الحظ ويقف بجانبه بعد خيباته المتكررة. أن يستعيد المباراة التي تسللت منه وتعود الكفتان متوازنتان كما بدأت. السعادة تتفجر من قلبه ويضحك بسعادة في وجوه رفاقه.

عادت الكرة إلى المنتصف وشليّل يضع صافرته في فمه، الوقت الإضافي انتهى ولم يعد هناك المزيد من الوقت. لا أحد يشعر بالسعادة التي يشعر بها سعد وعمران وسلمان على وجه الخصوص. المباراة المجنونة انقلبت فيها الموازين ووضعتهم على السواء مع فريق كلاوي المحبط الذي نالت منه الخيبة فلم يعد يأبه بالمباراة. يمررون الكرة بينهم بإهمال منتظرين صافرة النهاية وأعينهم تراقب شليّل، غمرة الانهزامية أخذتهم لقاع الذل الذي تهاووا نحوه مما جعل عبود الأعور يخطئ في تمرير الكرة إلى الخلف فحصل عليها سعيّد وانطلق بها من الرواق الأيسر فتوقف الجميع على أقدامهم يشاهدون ما يحدث. سكتت الأفواه ووجفت القلوب وهو ينطلق في لحظاتٍ عصابية ارتعدت لها الفرائص وحُبست لها الأنفاس. رفع رأسه في الجناح الأيسر وأرسلها

عرضيةً قوية وسريعة أخطأت كل منهم أمام المرمى فلم يتوقع أحد أنه سيفعل ذلك. تجاوزتهم فملأ شليّل صدره بالهواء وصافرته في فمه. مرت الكرة من فوقهم والخيبة تدب في صدر سعد ورفاقه الذين لم يدركوا أن اللاعب الفذ قادم من الخلف وأن سعيّد أرسلها له بدقة، وصلت إلى البطل، إلى نجم المباراة ومنقذها الحقيقي، إلى الأبكم الذي كان يعدو من الرواق الأيمن من خلفهم جميعاً وقفز والأعين تجحظ في محاجرها متطلعةً إليه يرتقي عالياً وحيداً في الهواء كما لو كان يسبح، يطير مستلقياً بجانبه ويمد ساقيه وحاجباه ينعقدان بالعزيمة، وبحركة أكروباتية أشعلت الملعب، أوقدت الجمهور، سددها بقدمه اليمنى نحو المرمى، سددها بكل قوته فلم يتحرك كلاوي من مكانه، لم يشاهدها وهي تستقر في المقص التسعين هدفاً خامساً، هدفاً للفوز، هدفاً لصناعة كرة القدم المجنونة التي حمي وطيسها على اسفلت منفوحة.

جُنّت الجماهير مع الهدف، تعالت الصيحات ورُميت الرايات وتطايرت عبوات العصائر وضجت الحارة بأبواق السيارات وأطلق شليّل معها صافرته معلناً نهاية المباراة. تداخلت المشاهد واضطرب الملعب والحارة وركض جميع من بالملعب والمحيطين به واختلط الحابل بالنابل. القشعريرة والصخب والإثارة وروح المتعة انتشت بالجميع والأبكم يركض نحو الزاوية حتى حاصره فريقه

متكوّمين عليه. انهمر الجمهور كسيلٍ هدار على أرض الملعب وأحاطوا بهم وراحوا يحتفلون معهم ويشاركونهم فرحتهم حاملين الأبكم على الأكتاف وهو يبرطع بفرح. كلاوي ركض إلى شليّل وهو يصرخ بوجهه مستنكراً تأخر إطلاق الصافرة. حيدر سقط على ركبتيه باكياً من الفرح. عمران ركض إليهم بعرجه. لاعبو النسور توقفوا في الملعب مذهولين قبل خروجهم منه واحداً بعد الآخر بخيبة. ازدحمت المشاعر واصطخبت الأصوات والكثير منهم كان يبكي. وقف سلمان وعمران أمام كلاوي ورقصوا رقصة الدجاج مبقبقين فتوجه هذا الأخير إلى الكاميرا وألقى بها على الأرض وداسها حتى تهشمت. أهالي حارته كانوا غاضبين منه أيضاً، استغلهم وتعالى عليهم وخدع أحلامهم وبدد أموالهم في فريقٍ يتلقى خسارته على أرضه وبين جمهوره فرشقوه بالحجارة حتى ولى هارباً من الملعب وفريق سعد يحتفل في منتصفه. أبو جابر كان يقفز مع أبنائه بعد أن تأكد من إتيانه على كل عبوات العصائر. هتفت الجماهير بأسمائهم واشتعل الحماس وضجت الحارة بكل ما فيها ومن فيها لهذا النصر الخرافي. لقد كان نصراً للتاريخ، لقد كان يوماً مشهوداً ولا يُنسى في تاريخ منفوحة كبارتي عطاالله.

وقفة:

الأبكم شخص لا يجيد الكلام وليس بالضرورة أنه لا يجيد كرة القدم.

النهاية على لسان الراوي

على مدى خمسة أعوام بعد المباراة، لم نخلع أنا وسلمان وعمران قمصان أياكس الهولندي إلا في المناسبات. كنا نتباهى بها ونتعمد المرور من حارة كلاوي ونحن نرتديها. تهلهلت قمصاننا وسقطت أرقامها وبعض حروف الأسماء ولكننا كنا مصرين على ارتدائها عند خروجنا للحارة. أما سعد فأهدى قميصه لحيدر الذي علقه فوق كرسيه وما زال معلقاً هناك حتى اليوم منذ صيف ١٩٩٣م. أما أنا، راوي هذه الحكاية، فقد شاهدتها وعشت تفاصيلها كما رويتها لكم، فأنا الأبكم، أو الأطرم إذا كنتم تفضلون ذلك.

النهاية

خالد سعيد الداموك، قاص وروائي سعودي صدر له:

- حصة بنت الجيران (قصص قصيرة)
- كتابات لا تعرفينها (نصوص)
- المجنون رقم أربعة (قصص قصيرة وقصيرة جداً)
- الحوت (رواية)
- البحث عن بطل (رواية)
- قصة قصة (قصص قصيرة)